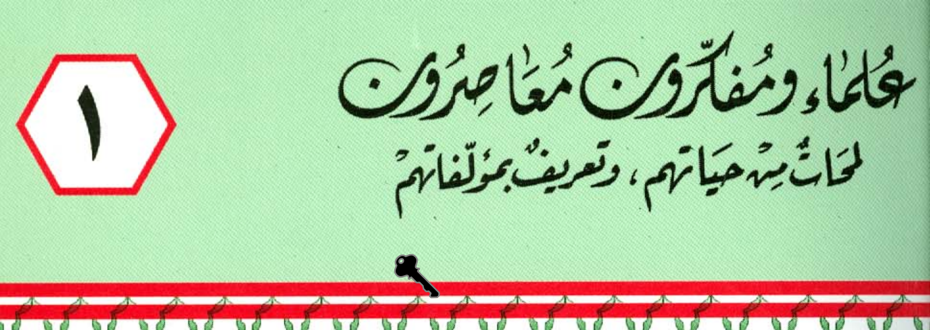


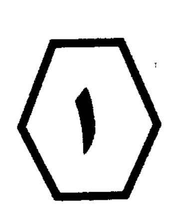
أبو الحسن علي الحسني الندوي

١٣٣٣ - ١٤٢٠ هـ
١٩١٤ - ١٩٩٩ م

الداعية الحكيم والمربي الجليل

تأليف الدكتور
محمد اجتباء الندوي

دار القلم
دمشق



علماء ومفكرون معاصرون

لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم

أبو الحسن علي الحسني الندوي

١٣٣٣ - ١٤٢٠ هـ

١٩١٤ - ١٩٩٩ م

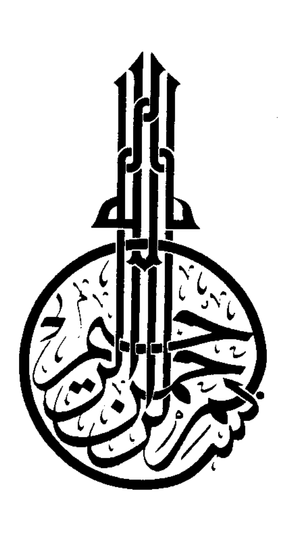
الداعية الحكيم والمربي الجليل

تأليف الدكتور

محمد اجتباء الندوي

دار القلم

دمشق



الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ١١٣ / ٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هٰذِهِ السِّلسِلَةُ الجَدِيْدَة

منذ ما يـزيد على ربع قـرن من الزمان ابتدأت دار القلم بـإصدار سلسلتها الرائدة (**أعلام المسلمين**)، ومضت تلك السلسلة تشقُّ طريقها في عالم النشر والثقافة، وتجاوزتْ الصعوبات والعقبات التي اعترضَتْها، وأخرجت للقرَّاء العشراتِ من الكتب في تراجم وسِـيَر رجال الإسـلام الكبار عَبْر التاريخ.

ولقد شارك في كتابة تلك السلسلة عَددٌ كبير من العلماء والكتَّاب وأصحاب القلم، تَضَافرتْ جهودُهم جميعاً في إصدار سلسلة تتناول حياة وأعمال رجـالٍ عظام، تنـوَّعت أعمالُهم، واختلفـت جهودُهـم، وكَثُـر عطاؤهم، وتركوا للناس من بعدهم آثاراً نافعة مباركة.

ولقد بلغت أجـزاء تلك السلسـلة حتى كتابـة هذه الأسـطر ثمانين كتاباً، بل أكثر، وهي لا تزال ماضية قُدُماً في طريقها، وتأمل أن تتمَّ المئة الأولى قريباً إن شاء الله عزّ وجلّ، ثم تخطو خطوات شجاعة في مشـوار المئة الثانية.

* * *

واليوم تبدأ دار القلم في إصدار سلسلتها الجديدة: (**عُلماء ومفكِّرون مُعاصرون: لَمَحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم**). وهذه السلسـلة سوف تتناول رجال العلم والفكر في القرن الرابع عشر الهجري والقرن

الخامس عشر أيضاً، ممّن أثْرَوا المكتبة الإسلامية المعاصرة بالكتب النافعة، والتأليف المتفوِّق، والفكر الرشيد، وقدَّموا للأجيال زاداً قيِّماً من العلم والمعرفة.

هذه السلسلة تريد أن تفتح أمام هذا الجيل والأجيال القادمة أبواب المكتبة الإسلامية المعاصرة، فتعرِّفهم على أسماء كتبها، وأصناف علومها وبحوثها، وتأخذ بيدهم للولوج إلى عالم تلك الكتب الرحيب بما فيه من علمٍ وفِكْرٍ، وتجديدٍ وإبداع.

وسلسلتنا الجديدة هذه لا تريد التوسع في سرد حياة علماء ومفكِّري هذه العصر، بل سوف تكتفي بتقديم لمحات موجزة في هذا المجال.

الذي تريده هذه السلسلة هو أن تقدِّم للقارئ إنتاج كل عالِم ومفكِّر في مَسْردٍ عام جامع، ثم تتناول كل كتاب في دراسة خاصَّة، تبين محتوياته، وتعرض لفصوله وأبوابه وموضوعاته، وتدل على ما فيه من جديد وتجديد.

وتريد أيضاً أن تقدِّم خلاصةً عن مزايا المشروع العلمي والفكري لكلِّ عالِم تتناوله في دراساتها، وما أضافه من جديد في ميدان العلم والفكر.

ولسنا نريد أن تقتصر هذه الدراسات على إطراء الكتب والمؤلفات وإظهار ما فيها من علم نافع، ومعرفة صحيحة، وفكر مفيد فقط، بل نريد أن ننبِّه إلى ما وقع في بعض تلك الكتب من أخطاء علمية وهَنَات فكرية، وأن نُنمِّي في القارئ مَلَكة النقد البصير، وأن نعوِّده على النظر بعينين اثنتين: عين الإعجاب والثناء، وعين النقد والتقويم، فإن العمل البشري عرضة للخطأ والصواب، والخطأ يقع من الكبار كما يقع من الصغار.

وليس يهمنا من العالِم والمفكّر كثرةُ الإنتاج العلمي والفكري - وإن

كـان مهماً ـ ولكن يهمنا نَفاسة العلم، وجَوْدة الفكر، ورصانة التأليف، وحُسْـن العرض، فـربَّ كتابٍ واحد يَعْدِل عشـراتٍ من الكتب في غِناه العلمي، وفي رَوْعة محتواه، وقيمة أفكاره.

* * *

لقد كُتب عن علمائنا المتقدِّمين الكثيرُ من الكتب، وعُرف عن كل عالم ما أخرج للناس من كتب ومؤلفات، لكنَّ عدداً من أعلامنا المعاصرين ممَّن لقي وَجْهَ ربِّه وممَّن لا يزال ينتظر لم يَلْقَ العناية التي تليق بعلمه وفكره، وربما ضاعت سيرته وضاع علمه مع مرور الزمن وقلَّة الاهتمام. لذا رغبنا أن نُخرجَ هذه الدراسات عن علمائنا المعاصرين: العلماء الذين لقوا وجه ربِّهم وفاءً لهم ولجهودهم، والعلماء الذين لايزالون تزدهر بهم رِحابُ العلم والمعرفة إكراماً لهم، واعترافاً بفضلهم، وتشجيعاً لهم.

ولسوف يُسعد دار القلم أن يتعاونَ معها العلماءُ والكتَّاب في إعداد أجـزاء هذه السلسـلة، التي نعتقد أنها سوف تسدُّ فراغاً مهماً في سـاحة ثقافتنا، وسوف يكون فيها نفع كبير إن شاء الله.

* * *

هذا، ولقد كان من حُسْن طالع هذه السلسلة أن تكون أولى حلقاتها عن عَلَم كبير، ملأ دنيا الإسلام في عصرنا هذا شهرةً وعطاءً ونُبْلاً وفائدة، وسيرة حميدة وأعمالاً مجيدة، ألا وهو سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحَسَني النَّدْوي، الذي انتقل إلى جوار ربِّه عزَّ وجلّ منذ عامٍ واحدٍ تقريباً، بعد أن ترك للناس مِنْ بَعْده نموذج قُدوةٍ حَميدة مَجيدةٍ في سيرته وحياته، وفي عملـه الدؤوب في الدعـوة إلى الله، وفي تقديم الكتب والمؤلفات والمقالات والمحاضرات التي انتفع منها أجيال من المسلمين، وسينتفع منها أجيال أخرى إن شاء الله.

نسـأل الله عزَّ وجلّ في ختـام هذه الكلمـة أن يعيننـا ، وأن يلهمنـا الصواب ، وأن يـأخذ بيدنـا في إخراج العديد من الدراسـات الجيدة عن نخبة طيِّبة من أعلام عصرنا ومفكِّريه ، وما أتحفوا به أمتهم من كتب قيمة ودراسات رائدة .

ربَّنـا عليك توكلنـا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير ، والحمد لله في البدء والختام .

الإثنين ٦ شوال ١٤٢١هـ
١ / ١ / ٢٠٠١م

النَّاشِر

تقـــديم

بقلم فضيلة الشيخ

محمد واضح رشيد الحسني الندوي[1]

بَكَيْنـا وفـاءً لامـرئٍ قَـلَّ أن يُـرى   لـه فـي الـدُّعـاة العـامليـن نَظيـرُ
فخَلُّوا كلامي إن ألحَّ بي البُكا   فـإنَّ فـراقَ الصـالحيـن عَسيـرُ

الشاعر: محمد المجذوب

كان الشيخ أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي عالماً جليلاً من علماء المسلمين، وأديباً كبير من الأدباء الإسلاميين، وكان من المصلحين الذين ركَّزوا جهودهم على النهوض بالمسلمين في عصرنا الحاضر.

لكن ميزته الكبرى أنه كان حامل لواء الأخوة الإنسانية، ورائد الأمن والسلام في جميع أنحاء العالم، أراد إصلاح المجتمع الإنساني كلِّه، وخاطب الشرق والغرب في عقر داره بلغته ولسان قومه بحكمةٍ ومعرفة لأسقامه وآلامه. ففهمه قومه، وأحبُّوه لإخلاصه وعاطفته الصادقة ونفسه الزكية.

---

(١) الشيخ محمد واضح رشيد: هو ابن أخت سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله، وعميد كلية اللغة العربية بدار العلوم في ندوة العلماء بالهند، ورئيس تحرير مجلة الرائد التي تصدر في الهند، والأمين العام المساعد لرابطة الأدب الإسلامي العالمية.

كان محبوباً إلى جميع الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، فلما توفي عزّى به الزعماء المسلمون وزعماء سائر الحركات السياسية والاجتماعية بمختلف مذاهبها ومدارس فكرها، وتجشّم معظمهم مشاقّ السفر إلى (رأي بريلي) لتقديم العزاء، وأكّدوا ثقتهم في الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي الذي انتخب خلفاً له، الذي كان أقرب الناس إلى سماحة الشيخ وأكثرهم ثقة واعتماداً في أمور ندوة العلماء، وأموره الشخصية، وقد رافقه في جولاته ورحلاته العالمية، وكان ينوب عنه في كثير من المناسبات التي لم يستطع سماحته الحضور فيها.

لقد وصل إلى فضيلة الشيخ محمد الرابع المئات من رسائل التعزية بعد وفاة سماحة الشيخ، وعقدت اجتماعات كثيرة لذكر مناقب الشيخ الندوي، وأصدرت مجلات وصحف بلغات مختلفة أعداداً خاصة تتناول شخصيته وفكره ومزاياه، كما عقدت ندوات في الهند خاصة وفي الكثير من بلاد العالم الإسلامي لبحث جوانب من تلك الشخصية الكبيرة، وخصّصت كراسي في الجامعات الهندية باسمه الكريم.

وإن دلَّ ذلك على شيء فإنما يدلُّ على الحبّ الغامر الذي ارتبط بشخصية سماحته، والقبول العام الذي كان يحظى به في جميع الأوساط. ليس لمجرد أفكاره ودعوته إلى الوسطية والاعتدال، بل لأنه كان مثالاً للخلق الإسلامي، ولأن حياته كانت صورة لأفكاره ومثله.

إنه لم يكن من المغالين ولا من المتسامحين في أمور الدين. كان متسامحاً في خلقه مع الناس وكان شعاره كما كان يعلنه في خطبه وكتاباته: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]. وكان همُّ المسلمين بل الإنسانية يشغل فكره كل وقت، وكان في دعوته وتربيته وسلوكه مع الناس وحياته الخاصة يتمسك

بالتواضع والإيثار والعطف والحب ولين الجانب.

إنه كان يدعو إلى الإسلام، ولكن أسلوبه الذي كان يدعو به كان أسلوباً معتدلاً بين الأصالة والمعاصرة، كما كان موقفه إزاء الحضارة الغربية، فلم يكن يدعو إلى الرفض الكامل ولا إلى القبول الكامل، كان منهجه في الحياة كما كان يدعو إليه منهجاً وسطياً وهو الجمع بين القديم والجديد، كان دائم الفحص والاختبار، والدراسة والتفكير، وقد أوضح مسلكه في كتابه (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية) إنه كان يخاطب طلاب المدارس الدينية ويطالبهم بتجديد المناهج، ويخاطب طلاب المدارس العصرية ويطالبهم بالرجوع إلى منابع الإيمان واليقين، وتربية النفس، والخُلق الحسن، فكان مجاله مجالاً واسعاً، ومن أجل ذلك كان شخصية عالمية مثالية.

وصفه بعض الكتّاب الإسلاميين بأنه عميد الأدب الإسلامي، لكنه كان صاحب مدرسة خاصة في الأدب المعاصر، فقد قال له الدكتور تقي الدين الهلالي بعد إحدى محاضراته: «إن لك لأسلوباً يا أبا الحسن»، وذلك خير شهادة من أستاذ لتلميذه، وكتب الدكتور خورشيد أحمد في مقاله عن الشيخ النَّدْوي بعد وفاته: إن كلامه كان يصل إلى القلب مباشرة، وأما العلامة المودودي فكان يصل إلى القلب عن طريق الفكر.

وقد وجه الشيخ الندوي الأدب إلى طبيعته الأصيلة، ووظيفة البناء والإصلاح، وانطلاقاً من فكره نشأت حركة قوية للأدب الإسلامي العالمية، التي أقامت جسراً بين الأدباء الإسلاميين وغير الإسلاميين.

وكان محدِّثاً جليلاً يحرص على الفوز بإجازته في الحديث كبار المشايخ في العالم، عرباً وعجماً، أما تذوقه للأدب القرآني فكان غالباً على كتاباته، وذلك لأنه ظلَّ مدة طويلة شيخ الأدب والتفسير في ندوة

العلماء، وكان مفكراً إسلامياً طبقت مؤلفاته الآفاق، ونُقلت إلى مختلف لغات العالم.

وكان زعيماً يخوض معركة الحياة، ويحلّ مشاكل المسلمين، في الهند، وله منهج خاص لمعالجة القضايا السياسية، وكان مصلحاً ربانيّاً يعيش حياة الزهد، والورع، يقول الحق ولا يخاف لومة لائم، وكان مصلحاً اجتماعياً ومربياً دينياً في وقت واحد، فكانت حياته ذات جوانب متعددة، ولذلك شعر بتأثير وفاته رجال جميع الطبقات والفئات في العالم، وقد وصفه الدكتور يوسف القرضاوي الذي عرفه شخصياً ودرس فكره علمياً بـ(رباني الأمة والرجل القرآني والمحمَّدي الذي جعل الرسول الكريم ﷺ أسوته في هديه وسلوكه وحياته كلها، واتخذ مسيرته نبراساً له)، كان عالمي العطاء، فتحدث إلى العرب وإلى أمريكة وأوروبة، وأنشأ منبراً عالمياً للأدب الإسلامي، وكان عضواً لعدد من المؤسسات العالمية.

إن هناك سؤالاً ينشأ في الأذهان عند دراسة شخصية الشيخ الندوي، هو كيف التقت فيه هذه الصلاحيات والقدرات المتنوعة التي إذا وجدت صلاحية واحدة منها في زعيم كان من الفحول؟ وقد يَردُّ على السؤال ما كتبه الشيخ رحمه الله عليه بنفسه في مقدمة له لكتاب الأمير سيِّد صدِّيق حسن خان القنوجي، بقلم الدكتور محمد اجتباء الندوي، فكتب يقول:

«لقد ولدتُ في بيت كان موضوعه الحبيب بل هوايته التأليف في سِيَر الرجال وطبقاتهم، وتراجم العلماء وأهل الفضل، وخاصة الذين أنجبتهم أرض الهند، ونبغوا في شبه القارة الهندية منذ دخول الإسلام في هذه البلاد إلى هذا القرن، ونشأت في بيئة كان الحديث الدائر المتكرر في أوساطها ومجالسها، وتكأة المتحدثين فيها الإشادة بالمُثُل والقيم الإنسانية والعلمية والتنويه بسمات العلماء الكبار ومجالات اختصاصهم

وتبريزهم، والشعائر الغالبة عليهم، والتغني بنبوغ أصحاب النبوغ، وعبقرية أصحاب العبقريات في مختلف العصور والأمصار في إكبار وإعظام بل في شيء من الهيام.

فثارت في نفسي ملكة الإعجاب بمواضع العظمة والنبالة ومكارم الأخلاق وعلو الهمة وسمو النفس من بين أفراد البشر في سن مبكرة، لا تنبعث فيها هذه الملكة في غالب الأحيان، والملكات البشرية المودَعة في طبائع الأطفال قد يثيرها باعث خاص من بيئة وتربية وحوادث مخصوصة، فتنقدح وتتفتق قبل أدائها الطبعي المعتاد.

قد نشأتُ بصفة خاصة على حبِّ التفنن في الفضائل والجمع بين الأشتات بل الأضداد من الفضائل الإنسانية وأنواع العلوم والمعارف والآداب والثقافات وعلو الهمة، والقدرة الفائقة على التنسيق بينها، وتسخيرها للوصول إلى غاية مُثلي وخدمة العلم والدين، حتى لو أدَّى ذلك إلى المشاركة في علوم وآداب يتحاشى عنها كثير من علماء الدين، ويعدونها من ضالة العلوم وبراية الآداب.

ونشأت كذلك على حب من يوفقه الله ويقوِّيه على الجمع بين الرياستين: العلمية والعملية، والحُسْنَين: الدنيا والآخرة، والنقيضين: (في عُرْف الناس) من إمارة أو وزارة في جانب، والاشتغال بالتأليف والتدريس، أو التربية والإرشاد، والإصلاح وإزالة الفساد في جانب آخر».

إن عبقرية سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني وهو بتعبير أفضل أبو الحسنات، تنبع من هذه النشأة الجامعة والتوفيق الإلـهي الذي لا يوفق له كل من يحمل هذه الكفاءات، والدموع الحارة والدعوات القلبية الصادرة من قلب الأم الحنون، التي قامت بتربيته ورعاية شقيقه الأكبر الذي كان

جامعاً بين العلوم العصرية والدينية والصلاح والورع، والحمية الدينية، والذهن الدعوي.

لقد خلَّف سماحته مكتبة قيِّمة في موضوعات الفكر الإسلامي والتربية الإسلامية، والأخوة الإنسانية للأجيال القادمة، وسجل معالم نشأته وحياته في كتابه (مسيرة الحياة) وستستفيد الأجيال القادمة بهذه الكتب.

لكننا سوف نفقد رعايته الشخصية، وتوجيهاته لدى نشوب قضايا سياسية وفكرية جديدة. ولقد أبدى رأيه وتوجيهه في العديد من قضايا المسلمين: القومية العربية، والقومية البنغالية والقومية الهندوسية، والصراع الطائفي في شبه القارة الهندية، والأخطار المحدقة بالحرم الشريف، وحرب الخليج، والأحوال الشخصية الإسلامية، والمسجد البابري، وغيرها.

لقد تناول عددٌ من الكتّاب جوانب مختلفة من حياته، وكتبوا عن تأثيره على عَصْره، ومنهجه في معالجة قضايا المجتمع، وتنوُّع مزاياه، وعناصر تكوين شخصيته من زواياهم الخاصة، وهذه هي الطبيعة الإنسانية، إنَّ كل إنسان له وجهة نظر خاصة به قد تلتقي وقد تفترق عن وجهات نظر الآخرين.

وقد صدرت عدّة بحوث ودراسات عن الشيخ أثناء حياته رحمه الله، من الجامعات، وبأقلام محبِّيه من أهل العلم، ونالت هذه البحوث قبولاً لدى الناس. لكنها مجهودات شخصية تدلُّ على موقف الكاتب ونظرته، ومعظم الكتّاب الذين تناولوا سماحة الشيخ كان عملهم ثمرةً لدراسة أفكاره ومطالعة كتبه، وثمرةً للقاءات محدودة معه وفي زمن قصير.

أما ما كتبه أخونا وحبيبنا الدكتور محمد اجتباء الندوي بعد وفاة سماحته، فقد كان ثمرة تأثره الشخصي به، وانطباعه عنه بعد ملازمة طويلة، وأخذٍ عنه، ونَهَلٍ من مَوْرده العذب.

لقد عاش الدكتور اجتباء فترة طويلة بقرب الشيخ، وكانت لأسرته صلة وثيقة بأسرة الشيخ، وذلك من عهد الإمام المجاهد أحمد بن عرفان الشهيد، الذي كان من أقرب أتباعه إليه الشيخ جعفر علي النَّقْوي وهو الجد الأعلى للدكتور محمد اجتباء.

لقد قضى الدكتور اجتباء طفولته وعهداً طويلاً من دراسة في بيئة الشيخ، فعرفه وأحبّه، كما أحب أمجاد أسرته، ثم تتلمذ عليه وعاش فترة في ظل تربيته. ولقد صحبه في دمشق أثناء إقامته أستاذاً زائراً في جامعتها لعدة أشهر، في الخمسينيات من القرن العشرين، ورأى كيف أحبَّه علماء الشام منذ ذلك العصر وكيف قدّروا منزلته، ورأى حبَّ الناس وطلاب العلم العارم له في تلك البلاد.

ثم التحق بندوة العلماء مدرِّساً في عهد رئاسة سماحته لها، وعمل في مختلف المجالات العلمية والدعوية التي رعاها الشيخ رحمه الله.

وقد أتيحت له الفرصة ـ وهو قريب من الشيخ ـ لمحاورته، ولطرح الكثير من الأسئلة عليه، وطلبه معرفة رأيه في أمور وقضايا كثيره، فكان يجد من الشيخ الاستجابة والتوجه الصادق، والرعاية والحب الأبوي، وكان يجيبه على جميع أسئلته.

إنَّ ما كتبه الدكتور اجتباء عن الشيخ رحمه الله كان ثمرة سنوات مديدة اتصلت فيها حبالُه بحبال الشيخ، وامتدت إلى زمان طويل سابق بين أسرتيهما، وكان ثمرة محبة وتتلمذ وإكبار وإعجاب منه للشيخ، وثمرة عطف وحنان ورعاية من الشيخ تجاهه.

إنني أرجو أن ينال هذه الكتاب القبول الحسن من لدن القرّاء، وأن ينتفعوا به، وأن يكون فاتحة لدراسات وبحوث جادة وعميقة عن الشيخ في جميع جوانبه الثريَّة جداً بالعلم والتربية والقدوة الحسنة.

أدعو الله تعالى أن يتقبل عمله وأن يجزيه خير الجزاء.

في ٢٤/ ٣/ ١٤٢١هـ
٢٦/ ٦/ ٢٠٠٠م

محمد واضح رشيد

بين يدي هذا الكتاب

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَنْ لا نبيَّ بعده، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فقد أمسكت القلم مرّات عديدة، منذ سنوات، لأكتب عن شيخنا وحبيبنا ومرشدنا أبي الحسن علي الحسني النَّدْوي رحمه الله، وأكرم مثواه، وشجَّعني على ذلك أخي وصديقي سعادة الأستاذ محمد علي دولة حفظه الله ورعاه، ولكنْ لم أستطع فقد شعرتُ من الموضوع برهبة، وتوجستُ منه خيفة، إلى أنْ حدث ما كُنّا نخشاه.. فلقي شيخنا الحبيب ربَّه عزَّ وجلّ، وحُرمنا من رعايته وإشرافه، وفقدنا الشخصية التي كانت لنا والداً عطوفاً، وأستاذاً شفوقاً، ومصدراً ثرّاً، ومنهلاً نقيّاً عذباً صافياً، منذ نعومة أظفارنا.

إنني أذكر أنه شرَّفنا في قريتي، وهي القرية الوحيدة في المنطقة الشمالية لولاية (اترابرديش) الهند، التي كانت قد ارتبطت بدعوة الإمام (أحمد بن عرفان الشهيد) في بدايتها، وكنت في العام السابع من عمري، أقرأ في الصف الثاني من المدرسة الإبتدائية، فغمرني بحبّه، وأعطاني كتاباً يحتوي على قصص إسلامية في اللغة الأردية، وكان شاباً ممتلأً بالحيوية والنشاط، والحماس للدعوة، وألقى كلمة في مسجد القرية، ولم أدرك ما قاله تماماً، ولكنني أعجبت به وأحببته، وقد حضر تلك

المناسبة والدي رحمه الله، وأخي الأكبر السيد محمد إدريس وأخي الذي يليه الشيخ محمد مرتضى رحمهما الله، وكان يقيم في حينه بمدينة (لكنهؤ) ويعمل مدرساً في دار العلوم لندوة العلماء، وكان مرافقاً لـه مع ابن أخته الشيخ محمد الثاني الحسني الندوي رحمه الله، وكانا زميلين في الدراسة بمدرسة مظاهر العلوم، وكانا أخوين صديقين حميمين يضرب بهما المثل في الحُبِّ والإخاء، والوِدِّ والوفاء، وكانوا جميعاً يحبُّون الشيخ ويكرمونه.

وقدم مرّة أخرى مع جماعة من العلماء ليلقي خُطباً وأحاديث في الحفلة السنوية الختامية لمدرسة هداية المسلمين، التي أسَّسها جدُّنا الشيخ (جعفر علي الحسيني النقوي) بعد أن عاد من جهاد (بالاكوت) التي استشهد فيها شيخه وإمامه أمير المؤمنين السيد (أحمد الشهيد) رحمه الله، وكان صاحباً له، وأميناً عامًّا لمكتبه.

وكنت قد التحقت بهذه المدرسة، وبدأت أدرسُ اللغة العربية، فسألني عن بعض الكلمات والقواعد العربية، فسُرَّ بأجوبتي، وشجَّعني وشرَّفني بإهدائي كتابه (قصص النبيين) فكنتُ أذكر ذلك لأقربائي وزملائي بكلِّ فخرٍ واعتزازٍ.

وكان الكتابُ خيرَ مشجِّع، وأطيبَ نواةٍ لتعلُّمي اللغة العربية، وشاء الله أن أحظى بالالتحاق بدار العلوم لندوة العلماء، وأتخرَّج فيها، وأسعد بالإقامة في حيٍّ (أمين آباد) بزقاق (محمد علي) الذي كان يقيم فيه سماحة الشيخ وبقرب مقرِّ إقامته، ألتقي معه يومياً، أقرأ عليه، وأستفيد منه، وأتمتَّع من نفحاته الإيمانيّة والربانيّة والدعويّة.

وكان كل همِّه وفكره ونشاطه: الدعوة إلى الله، وإصلاح الأمة، وهداية البشرية، وكان قد نذر نفسه وقواه لهذه الغاية الوحيدة، فدروسه وحلقاته للقرآن الكريم، والحديث النبوي والتاريخ والأدب، وإعداد

المؤلفات، وكتابة المقالات، والإشراف على السير التعليمي والمنهج الدراسي في دار العلوم ندوة العلماء، ورحلاته وأسفاره كلها كانت للدعوة، وتربية الشباب وإعداد الجيل.

لم يكن يهمُّه العيش الرغيد، والطعام اللذيذ، والفراش الناعم الوثير، كان يجلس على الحصير، ويأكل الجشب، ويلبس الخشن، ينام قليلاً، ويسهر كثيراً، كانت حياته كلُّها جهاداً، وكفاحاً، ومثابرةً، وثباتاً.

كان جريئاً في الحقِّ، ومقداماً في إحقاق الحقِّ وإبطال الباطل، وصريحاً في تقديم قضيَّة الإسلام ورسالتِه ومبادئه وقيمه، وقوياً في التكلُّم في أمور المسلمين أمامَ الملوك والأمراء والحكَّام، ولكن بلين ورفق، وتهذيب وأدب، وخلق ونبل.

خلَّف وراءه مكتبة قيِّمة زاخرة، ودراسات في قضايا الإسلام والإنسان، وحلولاً ناجعة للمشكلات والأزمات، ونماذج رائعة في الفكر والأدب البنَّاء، وأسوة حسنة مثالية للعمل والسلوك في الحياة، وترك منهجاً للدعوة وأسلوبها الفريد المثمر في عصرنا هذا.

هذا هو أبو الحسن علي الحسني الندوي الذي سيرى القارئ في هذا الكتيب لمحاتٍ من حياته، ونبذاً من سيرتِه ودعوتِه، وتعريفاً بأهم مؤلفاته.

ولقد كتبت هذا الكتاب الموجز استجابةً لدعوة دار القلم بدمشق، ليكون طليعة سلسلتها النافعة إن شاء الله (علماء ومفكرون معاصرون) وأنا آمل في إعداد ترجمة موسَّعة لشيخنا الجليل تنشرها دار القلم في سلسلتها الرائدة (أعلام المسلمين).

هذا وقد تمَّ إعداد هذا الكتاب الموجز في فصلين هما:

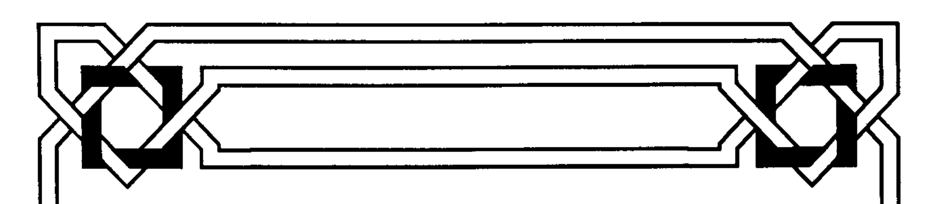
(١) لمحات من حياة أبي الحسن.

(٢) تعريف بمؤلفات أبي الحسن وآثاره.

والله َأسأل أن يتقبَّل عملي هذا المتواضع بقبول حسن، ويعفو عن زلَّاتي وتقصيري، ويغفرَ لي خطيئتي يوم الدين، وله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ.

دلهي الجديدة ـ الهند
١٣/ ١٢/ ١٤٢٠هـ
٢٠/ ٣ / ٢٠٠٠م

محمَّد اجتباء الندَوي



الفصل الأول

لمحات من حياته

- الأسرة الطيِّبة
- الميلاد والمحضن الزكي الصافي
- نشأة صالحة وتربية مؤمنة
- تعليم وتزكية
- الدراسات العليا المنتظمة
- عمل ودعوة
- في ندوة العلماء
- الدعوة والإصلاح
- الرحلات والانطباعات
- منهج وأسلوب
- حُسْنُ الختام

لمحــات من حيــاته

الأسرة الطيِّبة

أسرةُ سماحة الشيخ (أبي الحسن علي الحسني الندوي) تفرَّعت من الأسـرة النبوية الكريمـة الهاشمية القرشـية، تنتهي إلى عبد الله الأشـتر ابن محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن السِّبْط بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهم.

وقد حافظت على مدى التـاريخ على نسـبها وتقاليدهـا وعاداتها ورسالتها ودعوتها، فبقيت أسرةً دينيةً دعويةً مجاهدةً علميةً عريقةً كريمةً، عربيَّةَ الأصل، هاشميةَ الأرُوْمة، حسنيَّة المحتد، نبويَّة الطبع، محمدية الروح، وربَّانية الفكر يندر نظيرها في بلادنا (الهند).

نزحت في القرن السابع الهجري من المدينة المنورة عن طريق بغداد وغَزْنـة إلى الهند، وكان كبير الأسـرة الأمير (قطب الدين محمد المدني) المتوفى عام ٦٧٧ هـ ابن أخت الإمام السيد (عبد القادر الجيلاني)، قد أقام مدَّةً في (دهلي) عاصمة (الهند).

ثم خرج داعياً ومجاهداً مع أصحابه إلى ولاية (اترابرديش) شمالي الهند، واستقرَّ مع أفراد أسرته في قصبة الولاية حينذاك (كرامانك بور) واستوطن بعضهم في قرية (نصير آباد).

وبـارك الله في ذريتـه، فكان فيهم علماء، ودعـاة، ومؤلِّفـون،

وربَّانيون، اهتدى بهم خلق كثير، وتربوا تربية دينية علمية وخلقية على معرفة وبصيرة.

وعُرِف عن هذه الأسرة بل صار أمراً واقعاً ذائعَ الصيت بأنها لم تخْلُ في أيٍّ عصر من بذور طيبة صالحة أنبتت داعية مجاهداً أو مصلحاً مكافحاً، أو عالماً جليلاً، قائماً بالعهد، وفيّاً بالتراث، منافحاً عن عقيدة التوحيد وداعياً إلى الدين الحنيف، أمثال الشيخ الربَّاني (علم الله الحسني) الذي تحوَّل من (نصير آباد) وجعل مقرَّ أسرته على شاطئ (نهرسئ) وبضاحية مديرية (رائي بريلي)، وسمّى المقر (تكيه كلان) (التكية الكبيرة)، وشيَّد مسجداً يشبه الكعبة الشريفة إلا أنه جعل سعته أقل من بيت الله الحرام تكريماً له وتعظيماً، صار فيما بعدُ مركز الإشعاع ومنارَ النور ومنبع العلم والخير والصلاح والكفاح والجهاد.

وكان من أولاده وأحفاده علماء وأبطال وفتيان وقع عدد منهم صرعى في معارك الحق والعدل والحرية والدعوة.

وكان من رجال هذه الأسرة: الشيخ (أبو سعيد) وهو أخصُّ أصحاب الإمام (ولي الله الدهلوي) رحمه الله[1] قام بخدمات جليلة لا تنسى، والإمام (أحمد بن عرفان الشهيد) الذي خرج داعياً ومجاهداً مع أصحابه، كان من أهدافه السامية وسماته البارزة تقويمَ الاعوجاج، وتنقية العقائد من الشوائب، وإصلاح المجتمع، وتأسيس دولة إسلامية على

---

(١) من كبار المصلحين والمجدِّدين في الهند أيام العصر المغولي الأخير، يُراجع للتفصيل كتاب سماحة الشيخ الندوي رحمه الله (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) الجزء الرابع الذي خصَّصه للحديث عن ولي الله الدهلوي، وكتاب المؤلِّف (الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي) و(الأمير سيد صديق حسن)، ص٣٠ للمؤلف، طبع دار ابن كثير بدمشق.

نهج الخلافة الراشدة، ثم تحرير الوطن من الاستعمار الإنكليزي الغاشم، وكان النجاح حليفه في الثغور الغربية الشمالية للبلاد (وهي الآن جزء من باكستان) فطبّق الشريعة، ونفَّذ الأمن، والسلام والوئام، ولكن حيكت حوله مؤامرة دنيئة خبيثة من داخل البلاد وخارجها، فأطاحت بالدولة الإسلامية الفتية، واستشهد الإمام (أحمد بن عرفان) رحمه الله تعالى مع كبار أصحابه المجاهدين، وكان فيهم العالم العبقري، والفقيه المحدِّث الجليل الشيخ (محمد إسماعيل) حفيد الإمام الدهلوي في وادي (بالاكوت) عام١٢٤٦هـ-١٨٣٠م.

وكان من رجالات هذه الأسرة الكريمة في العصر الأخير السادة الشيوخ: فخر الدين الحسني، والسيد ضياء النبي الحسني من كبار العلماء الربَّانيين، والأول هو جدُّ سماحة الشيخ الندوي، والثاني جدُّه لأمّه، وأمَّا والدُه العلاَّمة الشيخ (عبد الحي الحسني) وشقيقه الدكتور (عبد العلي) رحمهما الله فكان كلٌّ منهما علماً بارزاً في حقل العلم والدعوة ولهما أيادٍ بيضاء في الإشراف والرعاية ونهضة ندوة العلماء بالهند، وتخريج العلماء والدعاة والصالحين، فالأسرة كلُّها كانت ولا تزال من الدعاة الأبرار الأوفياء للإسلام وعقيدته القويمة ورسالته الخالدة.

يقول سماحة الشيخ الندوي رحمه الله:

«يطلعنا تاريخ الأسرة القديم والمعاصر على حقيقةٍ لها شأنُها، وهي أنَّ الأسرةَ منذ قدومها إلى الهند - وقد تمَّ ذلك بورود الأمير الكبير السيد (قطب الدين محمد المدني) مؤسس هذه الأسرة في الهند في أوائل القرن السابع الهجري كما مرَّ - إلى عهدنا هذا، لم تزل متمسِّكة بعقيدة التوحيد الخالص، بعيدة عن الأعمال الشركية، متجنبة للبدع والمُحْدَثات، مصونة من تأثير العقائد الشيعية، وكانت الدعوة إلى التوحيد واتِّباع السنَّة

المطهَّرة شعارَها الدائم وميزتها البارزة». ويقول:

«يستفاد من كتب التراجم والأنساب، وكتب التاريخ المستفيضة لهذه الأسرة أنَّ خصيصتها المميزة التي ما زالت في مختلف أدوارها وعهودها، هي خصيصة الرجولة والحميَّة الدينية وعاطفة الجهاد التي يمكن أن تعبِّر عنها بالجملة كلمة (الفتوَّة)[1].

فكان سماحة الشيخ رحمه الله من قِبَلِ الأب والأم كريماً ونجيباً، فهو المُعَمُّ المُخْوِل كما قالت العرب قديماً.

* * *

(١) مسيرة الحياة: ١/ ٣٤ـ٣٥.

الميلاد والمحضن الزكي الطاهر

ولد سماحة الشيخ الندوي في قرية (تكيه كلان) بمديرية (رائي بريلي) لولاية (اترابرديش) في السادس من محرَّم الحرام عام ١٣٣٣هـ الموافق عام ١٩١٤م في بيئة نقية صافية هادئة مطمئنة راضية في السرَّاء والضرَّاء، واثقة بالله عز وجل، ونشأ وترعرع في كنف أبوين كريمين بما أضفى الله عليهما من نعم الوئام والانسجام، ومنن الوفاق والتآزر والتشاور، فقد كان الأب هو العلاَّمة السيد (عبد الحي الحسني) ينتمي إلى فرع الأسرة الكبيرة الذي لم يكن يملك إلا العلم والفضل والعفاف والتقى، وكان رزقُه كفافاً، وكانت أمه الفاضلة تصلُ إلى فرع ينعم بعيش رغيد، ورفاهية ورخاء وهناء، وكان أبوها إلى جانب هذه الثروة والغنى من كبار الصالحين والربَّانيين، وهو الشيخ الجليل السيد (ضياء النبي الحسني) وكان يؤثر العلاَّمة السيد عبد الحيِّ الحسني لعلمه وفضله وبرِّه وصلاحه، ولما بلغته خطبته لابنته خير النساء، تهلَّل وجهه بِشْراً، ونصح زوجته التي احتارت وتردَّدت بقبول يده على عُسْره.

وفي هذه الفترة رأت البنت الفاضلة في المنام آية قرآنية ردَّدتها إلى الصباح، ولم تخبر الأبوين إلا بعد أن زال خوفها، فبكى الوالدُ، وكانت الآية هي: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧]، فامتلأت العائلة كلها بهجة وسروراً، وعُقِدَ القران، وعاش الزوجان عيشةً سعيدةً هنيئةً.

وكان العلاَّمة الشيخ (عبد الحي الحسني) رحمه الله عالماً واسعَ المعرفة، عميقَ المطالعة، طويلَ الباعِ في الدراسة والبحث، مُكِبّاً على الكتابة والتأليف، خاشعاً قانتاً صامتاً، مرهوبَ الجانب، سليمَ العقيدة راسخَ العزم، غزير الإنتاج، كثيرَ العطاء، ورث مكتبة غنيةً زاخرةً، أمدَّته بإعداد مؤلفات وكتب قيِّمة، منها كتابه (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر) الذي عُنونَ في طبعته الأخيرة باسم (الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام) تحدَّث فيه عن أربعمئة وخمسين شخصية من الهند مثَّلت دوراً حيوياً في ميادين مختلفة من حياة العلم والدين والدعوة، بأسلوب عربي مبين، إلى جانب كتب ومؤلفات أخرى باللغتين العربية والأردية، ونشر له المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) بدمشق كتابين: (الثقافة الإسلامية في الهند) و(الهند في العهد الإسلامي).

وكانت له مواقف مشرِّفة في التعليم والتربية وإعداد المناهج والمقررات، وكان قد سار في ركب حركة ندوة العلماء المباركة منذ نشأتها، واختير رئيساً عامّاً لها، وقادها بحكمة وحنكة، وحافظ على قيمها وأهدافها ورسالتها، فتقدَّمت بخطوات وئيدة إلى الرقيِّ والسموِّ والرفعة، وارتفعت مستويات الدراسة في دار العلوم التابعة لها، فبدأت تؤتي ثماراً حلوة يانعة.

ولم تشغله هذه المسؤوليات عن تعليم وتربية أولاده، وخاصة ابنيه العزيزين الدكتور السيد (عبد العلي الحسني) الذي كان قد نال إجازة في العلوم العربية والإسلامية في دار العلوم بندوة العلماء ودار العلوم بديوبند، وبرع فيها، ثم اتجه إلى اللغة الإنكليزية والعلوم العصرية، ووفِّق بالالتحاق بكلية الطب (الحديث) بجامعة لكهنؤ، وكان ينجح في اختبار التسجيل لهذه الكلية الطلبةُ المتفوِّقون وأصحاب الحظوظ، والابن

الأصغر وهو شيخنا (أبو الحسن علي) وكان لا يـزال طفلاً صغيراً، أتى بـه من القرية إلى مقرِّ عمله في مدينة لكهنؤ، وعيَّن له مدرساً يتلقى منه دروساً أولية، وأشرف على تعليمه خاصة.

ولكن وقـع حادث مفاجئ فقد أصيبَ العلاَّمـة السـيد (عبد الحي الحسني) بمرضٍ دام ساعات، ثم لقي على أثره ربَّه عزَّ وجل، وذلك في يـوم الجمعة في ١٥ من جمادى الآخرة سنة ١٣٤١هـ الموافق ٢/ فبرايـر (شباط) عام ١٩٢٣م، وكان الشيخ الندوي في السنة التاسعة وأشـهر من عمره، فأصيب باليتم، وما بقي له عائل ولا كفيل، إذ كان أخوه الأكبر في السنة الأخيرة من دراسته للطب، فتولَّت الأم الفاضلة السيدة (خير النساء) تعليمه وتثقيفه وتربيته وكانت تحفظ القرآن الكريم، وتتثقف بثقافة عالية، ألَّفت كتابـاً لتوجيه الفتيات والنسـاء وتعليمهنَّ باسم (حسن المعاشرة) وكتاباً آخر لتعليم الشؤون العائلية والطبخ والطهي وتربية الأولاد خاصة باسم (ذائقة) وكانت تقرض الشعر، فجمعته باسم (باب الرحمة) يحتوي على: الحمد لله، وتوحيد الباري عزَّ وجل، ومدائح النبي ﷺ، ويشتمل على تـوجيهات رشـيدة وابتهالات وأدعيـة كريمة لابنها الوليد الحبيب أبي الحسن علي: تتضرَّعُ إلى الله، وتقول:

«إلـٰهي! يعيش ابني عليٌّ في الدنيا في حفظك وأمانك ورعايتك، ويسـتنيرُ به سراجُ العالم ومصبـاحُ الكون، ويخصب ويخضـر به بستان العالم، ربَّاه! استجب دعوتي فأنتَ المجيب، اجعل (عليًّا) فرحاً فخوراً ذا حظوة ونصيب»، في قصيدة طويلة بدموع وبكاء.

وكان لهذه الأدعية تأثير كبير في حياته ونور وربانية في سيرته.

وكان قد ازداد حبُّها وحنانُها وشـفقتها على ابنها الصغير بعد وفاة الوالد رحمه الله تعالى، وبذلت عناية زائدة واهتماماً كبيراً بتعليمه وتربيته

بحبٍّ ووله، مع الصرامة والشدَّة في تأدية الواجب، واحترام الكبير، والترحُّم على الصغير، وتأدية الصلوات الخمس على وقتها حتى صلاة الفجر، فلم تكن تتركه ينام وتفوته صلاة الفجر، توقظه وترسله إلى المسجد، كانت تشارك في هذا الأمر الأمهات الفضليات، وأمّ الأمير (سيد صدِّيق حسن) خاصة[1]، فقد كانت على غرارها وطريقتها.

حفظ بعض سور القرآن منها، وتلقى دروساً ابتدائية، وقرأ بعض الكتب الأردية والفارسية والعربية على عمَّيه الكريمين الشيخ (عزيز الرحمن الحسني) والشيخ (محمد طلحة الحسني) وعلى الشيخ (محمود علي) رحمهم الله.

ولما أتمَّ شقيقه الشفوق المحبُّ الفاضل الدكتور (عبد العلي الحسني) دراسته واستقرَّ في مدينة (لكهنؤ) نقله إليه ليتابع الدراسة تحت إشرافه ورعايته، وكان قد دعاهما الأميران (السيد ظهور الحسن) وأخوه (السيد نجم الحسن) حفيدا الأمير (سيد صدِّيق حسن خان) ـ وكانا محبَّيْن مخلصين لوالدهما العلاَّمة السيد(عبد الحي الحسني) رحمه الله وصديقين حميمين للدكتور(عبد العلي الحسني)ـ للإقامة في قصرهما الشامخ الفخم إلى أن يجدا منزلاً لهما في البلد، وألحَّا على هذه الدعوة، فقبل الدكتور رحمه الله هذه الدعوة المخلصة، وأقام مع أخيه (أبي الحسن) في القصر نحو ثلاث سنين، فزالت من قلبه هيبة الملوك وأبّهة القصور، وما بقيت لديه للغنى والثروة والدرهم والدينار قيمة ولا أهمية، ولا للملوك والأمراء والأغنياء والحكَّام في حياته المقبلة خوف ولا رهبة.

* * *

---

(١) يراجع للتفصيل كتاب المؤلف (الأمير صديق حسن خان. . .)، طبع دار ابن كثير بدمشق.

نشأة صالحة وتربية مؤمنة

تحوّل سماحة الشيخ الندوي من قريته إلى مدينة (لكهنؤ) وكانت مدينـة العلم والثقافـة، ومدينة الشـعر والأدب، متحفِّظة على كثير من العادات والتقاليد والمآثر التي ورثتها من الملوك والأمراء المسلمين، الذين جعلوها عاصمة لهم مئات السنين، وفوق ذلك كانت مركز حركة نـدوة العلماء، وقصر دار علومهـا التي كانت منهلاً عذبـاً صافياً للعلـوم والمعارف والحضارة الإسلامية، وموردأ ثرّاً للعلماء والدعاة والصالحين، فوجدت الطفولة البريئة مرتعاً خصباً للنمو والرقي ونهضة الكفاءة والمقدرة والموهبة الخفيَّة التي لم يفطن لها كثير من أهل القرية.

وقد استطاع السيد الدكتور عبد العلي بحكمته البالغة، وتربيتـه المؤمنة، وأساليبه الحكيمة الصالحة، أن يوقد تلك الجمرة المتخفية، ويحولها إلى نور يستضيئ به أخوه الغضّ الطري في طرق التعليم والتربية الطويلة.

وكان الدكتور متحلِّياً بثقافتين: قديمة وحديثة، كان عالماً جليلاً، وطبيباً حاذقاً نطاسياً تخرَّج في كلية الطب الحديث بجامعة (لكهنؤ)، كان ملتزماً بالدين، ومتمسِّكاً بأحكامه، وعاضّاً بالنواجذ على عقيدة التوحيد، ورسـالة النبي الكريم عليـه الصلاة والتسـليم، يـدرك مطالـب العصـر وتحدياته، ويعرف الحركات والتيارات والاتجاهات المعاصرة، ومايحدق بالإسـلام وأمته ودعوتـه من الأخطار والفتن، وكيـف يجب أن يـواجهها

الداعية المؤمن المعاصر، وما العوامل والوسائل التي تكلّل جهوده ومساعيه بالنجاح والتوفيق، كان يفكر ويصمم، ويرشد ويوجه، وينير السبل ويضيء الطرق.

كان هو نفس الأخ الذي لم يكن يلتفت إلى شقيقه الأصغر أيام حياة الوالد الجليل، كان مكبّاً على دراسته، ومنهمكاً في إعداد دروسه، والنجاح في فحوصه، واختباراته، فإذا به يتحوَّل بعد وفاة الوالد حبّاً وشفقة ورحمة وحرصاً شديداً على رعاية شقيقه الصغير أبي الحسن علي، وتعليمه وتربيته، ونموِّه ونشأته نشأة صالحة مثالية، وكرَّس جهوده كلها على الأهداف والغايات النبيلة السامية التي كانت تنشدها أمه، وتبتهل إلى الله، وتدعو له صباح مساء، فالتزم التزاماً شديداً بالأمور التالية:

١ - الاهتمام بالصلوات الخمس، وتأديتها مع الجماعة على مواعيدها.

٢ - احترام الكبير مع التواضع والإيثار والشفقة على الصغير ومساعدته.

٣ - المنع من مجالسة المستخدمين وزملاء السوء، واختيار رفاق الخير، والجلوس مع الصالحين.

٤ - الحظر على قراءة الروايات والقصص والمسرحيات غير المجدية.

٥ - المطالعة والقراءة للكتب والرسائل البنَّاءة الصالحة.

كان الأخ الشفوق المحبُّ الدكتور رحمه الله تعالى يراقب أخاه الصغير في هذه الأمور مراقبة شديدة، ويسهر عليها بوعي وتيقُّظ، ويختار الكتب بنفسه، ويوجِّهه إلى مكتبة الوالد الغنية، التي ورثها من آبائه، وزاد فيها وأثراها بمؤلفاته ومؤلفات العلماء الأفاضل من الهند وبلاد العرب

والإسلام، وقدَّم له أول كتاب ليقرأه وهو (سيرة خير البشر)، ثم قرأ بنفسه كتاب (رحمة للعالمين) للقاضي سلمان المنصورفوري، فوجد للكتابين هـوًى في نفسه، وكان لهما تأثير عميق في حياته ونشأته وتربيته، وقد أثبتت التجارب أن السيرة النبوية إذا وجدت مكاناً أولياً في قلب الطفل الغضِّ الطريِّ تأتي بالعجائب، وتجعله مؤمناً صادقاً، صحيح العقيدة، نبيل الخلق، داعية مخلصاً، قائماً بنشر رسالة الإسلام، ورفع كلمة الله العليا.

وبدأ الدكتور يُهيِّئ له جوّاً ملائماً، وبيئة صالحة متَّزنة هادئة، لأنهما (الأم والأخ) أرادا أن يُعدَّاه (بمشيئة الله وقدره) تحت رعايتهما رجل الغد، وشخصية المستقبل، وقائد المسيرة، وعالم الأمة، ومربّي الأجيال، وداعية الأمة الحكيم على منهج النبوة وسير الصحابة وطريقة السلف الصالح رضي الله عنهم.

نشأ الشيخ الندوي وترعرع في هذا الجوِّ الإيماني، والبيئة العلمية الثقافية الخلقية المتَّزنة المتوازنة، ملؤها حبُّ الأم الحنون، بصرامة المربية العالمة الحازمة المتَّقدة بنور الإيمان، والدعوة والجهاد والكفاح، وتعلوها ظلال عقلية الشقيق الوارفة، المؤمنة المفعمة بعلم وبصيرة نافذة، وحكمة وحنكة وثقافة جامعة شاملة، برأفة وشفقة وودٍّ وإخلاص، وعلى هدي الإسلام وسيرة الأسرة الكريمة العلمية الداعية المجاهدة الوفيّة للدين والوطن والسعي لصلاح الأمة وفلاح الشعب وخير الإنسانية، فلم يغفل لحظةً، ولا طرفة عين عن هذه الغايات المنشودة، وكانت لهذه النشأة الصالحة والتربية المؤمنة ثمارٌ يانعة ونتائج حسنة، ومنجزاتٌ عظيمةٌ ضخمةٌ، وتراث قيِّم غالٍ، كما سنرى في الصفحات القادمة بإذن الله.

* * *

تعليم وتزكية

شاء الدكتور (عبد العلي الحسني) أن يتلقَّى أخوه الصغير تعليمه ودروسه أمام عينه وتحت إشرافه، فلم يُلحقه بالمدرسة طالباً منتظماً، بل أخذه إلى صديق له عربي كان يدرِّس في جامعة (لكهنؤ) ويقيم في حارته، وهو الشيخ (خليل بن محمد اليماني) ليتلقَّى منه دروس اللغة العربية ويتقنها حديثاً وكتابة.

وكان الشيخ اليماني معلِّماً قديراً متمكِّناً من اللغة العربية الفصحى، فاعتنى بتلميذه، واهتمَّ به كثيراً، وفرض عليه بأن لا يحدِّثه إلا باللغة العربية، وإن خالف فعليه غرامة، وكان ذلك عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٤م).

كانت للشيخ اليماني قدرة عجيبة، وملكة غريبة بحيث يجعل تلميذه يتذوَّق اللغة ويتمتَّع بها، ويكبُّ على تعلُّمها بشوق كبير، وشغف زائدٍ.

فقد حضر مع أخيه الدكتور (عبد العلي) رحمه الله مؤتمر ندوة العلماء العام سنة ١٩٢٦م في مدينة (كانفور) ولم يكن قد مضى على تعلُّمه اللغة العربية إلا أقل من سنتين، وكان من بين مندوبي المؤتمر بعض العلماء العرب، فبدأ يتحدَّث معهم بالعربية وهو ابن اثني عشر عاماً، فأعجبوا به، وجعلوه يرافقهم إلى السوق، وإلى زيارة الأماكن الأثرية.

أتمَّ دراسة اللغة العربية وبعض أمهات الكتب والمصادر الأدبية عند الشيخ اليماني رحمه الله، ثم التحق بقسم اللغة العربية بجامعة (لكهنؤ) بإشارة منه، ونال شهادة: (فاضل أدب) بتفوُّق، وفاز بوسام عام ١٩٢٧م،

وفاز بامتحان (فاضل حديث) في السنة الأخرى، وكان أصغر طلاب القسم.

ودرس ما بين ١٩٢٧ ـ ١٩٣٠م اللغة الأردية وآدابها، وعكف عليها واطّلع على مصادرها ومدارسها وأسلوبها، والاتجاهات الحديثة فيها، فأتقنها وبرع فيها.

وشرع يقرأ اللغة الإنكليزية على الشيخ (خليل الدين) وكان متمكِّناً منها ومن آدابها، فجعله يتشوَّق لتعلُّمها والاستزادة من دروسها، وبدأ يذهب إلى معلِّم اللغة الإنكليزية الكبير الأستاذ (محمد سميع الصدِّيقي) ليتلقى دروساً في الأدب الإنكليزي، وكاد ينقطع إليه. وكان قد شجَّعه بعض أقاربه على تعلُّم هذه اللغة لحاجة العصر وفرص مادية ووظائف حكومية، فبلغ النبأ أمَّه الحنون وهي في قريتها، فأرسلت إليه مكتوباً مؤثِّراً نصحته فيه برفق، وأوضحت له محاسن اللغة العربية وفوائد العلوم الإسلامية والقيام بواسطتها بالدعوة إلى الله، ابتغاء مرضاته، وخيري الدنيا والآخرة، وابتهلت إلى الله، وتضرَّعت إلى ربِّها عز وجل بأن يصرفه إلى ما يحبُّه ويرضاه.

فاستجاب الله دعاءها، ودبَّت السآمة والملل والنفور من اللغة الإنكليزية إلى قلبه، وكان قد تعلم من هذه اللغة قدراً استفاد منه في الرجوع إلى المصادر الإنكليزية أثناء تأليف كتبه، وقد استفاد منها في رحلاته إلى إنكلترة وأمريكة والدول الغربية الأخرى.

ولمَّا قدم أديب العربية الكبير ونابغتها الدكتور (تقي الدين الهلالي) إلى ندوة العلماء بدعوة من رئيسها الأسبق الدكتور (عبد العلي الحسني) لزمه مع زميليه الكريمين الشيخ (مسعود عالم الندوي) رحمه الله تعالى، والشيخ (محمد ناظم الندوي) حفظه الله، وتخصَّصوا في اللغة العربية

وآدابها، وقرؤوا عليه عدداً من المصادر العربية، وانتفعوا منه كثيراً. وكان الدكتـور الهلالي من علماء اللغـة الأفذاذ القلائل، يقدر على التحدث بالعربية الفصحى بدون شوائب من العامية، وقد رأيته في بغداد ودمشق والمدينـة المنورة خطيبـاً مصقعاً، ومتحدثاً قديراً بارعاً، كالنبع المتدفِّق السلسال للبيان العربي والإعجاز اللغوي لا نظير له.

الدراسة العليا المنتظمة:

والتحق الأسـتاذ الندوي طالبـاً منتظماً بدار العلوم ندوة العلماء، وقرأ على محدِّث العصر فضيلة الشيخ (حيدر حسن خان) تلميذ العلاَّمة الشيخ (حسين بن محسن الأنصاري) (الصحيحين): (البخاري) و(مسلم) و(سنن الترمذي) و(أبي داود)، وشيئاً من (تفسير البيضاوي) في التفسير، وبعض سور القرآن الكريم، وأقام عنده عامين، أعطاه إجازة في الحديث النبوي بخطِّ يده لصلته الوثيقة به، وعنايته الزائدة بشأنه وذلك سنة ١٩٢٩م.

وفي خلال إقامته في دار العلوم ندوة العلماء قرأ بعض أبواب الفقه على الشيخ (شبلي) الفقيه، ومن هنا ارتحل إلى دار العلوم ديوبند ليتلقَّى دروس الحديث النبوي من شيخ الإسلام (حسين أحمد المدني) الذي كان من كبار زعماء حركة الاستقلال في الهند، وكانت له مع أخيه الدكتور (عبد العلي الحسـني) ومع أسـرته صلات وديَّة متينـة، وكان شـيخهم ومرشدهم.

وتلقَّى بعض دروس الفقه على الشيخ الفاضل (إعزاز علي) وكان الخواجه (عبد الحي الفاروقي) مدير الشؤون الدينية في الجامعة المليَّة الإسلامية (دهلي) آنذاك، نزل ضيفاً على أخيه، فأخذ منه دروساً في علوم القرآن وتفسير بعض السور.

وأخيراً تتلمذ على أكبر عالم لعلوم القرآن وتفسيره، وهو شـيخ

التفسير (أحمد علي اللاهوري)، وكانت له مقرَّرات خاصة، ودراسات عليا متخصصة للمتخرِّجين في المدارس والجامعات الإسلامية في الهند، وذلك في عام ١٩٣٢م، واستفاد منه في علوم القرآن وتفسيره كثيراً جداً، واستأنس به، وانسجم معه في الفكر والمبادئ والقيم، فبذل مجهودات ضخمة في النهل من منهله الربَّاني الصافي النقي وفاز في الامتحان النهائي بامتياز لفت أنظار العلماء والممتحنين الأفاضل.

وكان قد زار (لاهور) قبل ذلك في سنة ١٩٢٩م بدعوة من عمته المقيمة في هذه المدينة مع زوجها العلاَّمة السيد (محمد طلحة الحسني) وكان أستاذاً في الكلية الشرقية بلاهور، وكان الشيخ الندوي في الخامس عشر من عمره، وكانت قد نشرت له بعض المقالات والترجمات في اللغة العربية، وكان الشيخ الحسني يعتزُّ بتلميذه الصغير السنِّ، فكان يأخذه معه لزيارة الأماكن الأثرية التاريخية في لاهور وهي مدينة تاريخية بآثارها الإسلامية والحضارية وكانت مدينة الفكر والعلم والثقافة والأدب، وموئل الجماعات والجمعيات والأحزاب السياسية والاجتماعية، ومقرَّ الشخصيات البارزة من العلماء والصالحين والأدباء والشعراء وزعماء الإصلاح، وقادة حركة الاستقلال للوطن من الاستعمار الإنكليزي.

ووضع العلاَّمة الشيخ (محمد طلحة) برامج لقاءات للسيد الندوي ولمقابلة الشخصيات البارزة، فرافقه مرَّة إلى الكلية، وعرَّفه بسعادة عميد الكلية السيد (محمد شفيع) وكانت له هيبة وجلال، إذ كان من خبراء التعليم الأفذاذ، ذي مواهب وكفاءات نادرة، يتقن لغات عديدة، منها الإنكليزية والعربية، وقال له: إنه ابن أخي، يدرس اللغتين العربية والإنكليزية، وأنا أريد من سعادتكم أن تختبروه، وتشيروا عليه: أي لغة منهما يختار في دراسته المستقبلية فأجابه: ليس هكذا، تعالوا غداً إلى منزلي لتناول العشاء، ويأتي التلميذ العزيز بمقالاته في اللغتين، أقرؤها ثم

أقـرر ماذا يقرأ ويعمل. فاسـتغرب الحاضرون هـذه الدعوة والاهتمام الكبير، لأن سعادة العميد لم يكن يدعو إلى منزله أحداً، ولا يقابل أحداً.

وفي يوم الغد حضر الشيخ (محمد طلحة) ومعه الشاب (أبو الحسن الندوي) إلى منزل الشيخ محمد شفيع عند العشاء، وبعد قراءة عميقـة فاحصة لمقالات الشاب (الندوي) وبعد توجيه بعض الأسئلة له، أشـار على الطالب الصغير بأن يختار اللغـة العربية، لأنه سـيبرز فيها، ويمتـاز ويتفوَّق.. وهكذا كان!!

ولقي شاعرَ الإسلام الدكتور (محمد إقبال) وتحدَّث معه، وعرض عليه ترجمته لقصيدته (القمر) باللغة العربية، فأعجب به واستغرب، وبدأ يُلقي عليه أسئلة حول اللغة العربية، والمصادر العربية والأدباء والشعراء العرب قديماً وحديثاً، فردَّ عليه ردَّاً اطمأن إليه الدكتور رحمه الله، وأذن له فنقل قصائده إلى اللغة العربية، وشجَّعه على ذلك، وكانت هذه هي النواة الأولى لأحاديثه عن (إقبال) في القاهرة ودمشق ومكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة، ونشر كتابه القيِّم ذائع الصيت (روائع إقبال) فيما بعد.

كانت أسرة سماحة الشيخ الندوي كما عرفنا أسرة علمية دَعَويـة إصلاحيـة، تتَّسـم بالإحسـان والسـلوك والتزكيـة، وتتحلَّى بالربانيـة والروحانيـة، فلم يغب عن بال شـيخنا الندوي رحمـه الله هذا الجانـب الروحي، فكان يحضر مجالس الصالحين المربِّين، وكان منهم أسـتاذه الشيخ (أحمد علي اللاهوري) وشيخه المرشد (غلام محمد) الذي كان من كبار الربَّانيين في ذلك العصر، ثم قويت صلاته تقوية لهذا الجانب بالشيخ التقي الصالح المربِّي الجليل سيدنا عبد القادر الرائي بوري، وتربَّى بإشـرافه. وكان يتـردَّد إلى مجالـس الصالحين والعارفين والربَّـانيين، ويتمتَّع بنفحاتهم القدسية ودعواتهم، ويتزوَّد منهم في كتاباته ورحلاته

ودعوته الإصلاحية التي تمتاز بالربانية الجامعة الشاملة، المؤثِّرة الجذَّابة، التي تلقَّاها الناس بالقبـول والحبِّ والتقدير، واحتلَّ بسـببها مكانةً ساميةً مرموقةً في كلِّ وسط من أوساط الناس.

* * *

عمل ودعوة

أمضى الشيخ الندوي بعد إتمام دراسته المنتظمة ثلاثة أشهر في مدينة (لاهور) تلبية لطلب شيخه السيد (أحمد علي اللاهوري) أستاذ التربية والتزكية، وعاد بعدها إلى مدينة (لكهنؤ) حيث كانت (دار العلوم ندوة العلماء) وكان قد بلغ العشرين من عمره، فأحبَّ أن يعكف على مزيد من المطالعة والدراسة والبحث تحت إشراف أخيه الشفوق الفاضل، ورعاية أمّه الحنون التقيّة الصالحة.

وكان مدير الشؤون التعليمية (معتمد تعليم) بندوة العلماء هو العلاّمة (السيد سليمان الندوي)، فتفرّس فيه مواهب وقدرات وكفاءات تؤهله للتدريس والإفادة والتوجيه للطلبة، فعيّنه بقرار من المجلس التعليمي أستاذاً لعلوم القرآن وتفسيره والأدب العربي، فباشر العمل في دار العلوم اعتباراً من أول أغسطس عام ١٩٣٤م وبقي عضواً لهيئة التدريس فيها مدّة عشر سنوات، فكان خيرَ مدرِّس، وخير موجِّه، وضع منهجاً دراسياً مبتكراً، واختارَ طريقاً جديداً للتدريس، ولم يتبع الطرقَ الرائجة، ولم يطبّق سياسة التعليم التي عهدها في حلقات دروس أساتذته تماماً، وجعل تلاميذه يتذوّقون المواد الدراسية، ويتلاءمون معها وينسجمون.

ونفَّذ مع بعض زملائه في التدريس الطريقة المباشرة لتعليم اللغة العربية، وكان ناجحاً وموفّقاً، واختبر رئيسُ ندوة العلماء الطلاب بنفسه فوجدهم متفوقين ناجحين، فأثنى عليهم ثناءً مشجِّعاً، وتحلّق حوله الطلبة، وأحبُّوه وآثروه.

وكان صديقه الحميم وزميله العزيز الشيخ (مسعود عالم الندوي) يسأل الطلبة الذين يدرسون في فصله عن تدريسه التفسير خاصة، فيخبرونه بأنه أستاذ ناجح وقدير، ولكنه لو استزاد في المعلومات والرجوع إلى مصادر علوم القرآن لكان النفع أوفر وأشمل، فلفت نظره إلى ملاحظة الطلاب هذه، وكان أكثرهم أكبرَ سنًّا منه أو مثله في العمر، فبدأ يطالع ويتعمَّق في دراسة علوم القرآن وتفسيره والاطِّلاع على الكشوف والاستطلاعات الحديثة والمعلومات الجديدة في الموضوع.

وفي هذه الفترة صدرت صحيفة عربية اسمها (الضياء) لسان حال ندوة العلماء، فساهم في تحريرها مع زميله الكريم الشيخ (مسعود عالم الندوي)، وشارك في تحرير مجلة (الندوة) التي صدرت من جديد، ورأس تحريرها فترة من الزمن، وكانت تنشر له كلمات ومقالات في صحيفتين: العربية والأردية، ونشرت له أول مقالة في اللغة العربية عن الإمام (أحمد ابن عرفان الشهيد) التي استفاد في إعدادها من مقالة قيِّمة نُشرت في اللغة الأردية لفت نظره إليها شقيقه الفاضل الدكتور (عبد العلي)، وأرسلها فضيلة الدكتور (تقي الدين الهلالي) إلى صحيفة (المنار) في مصر سنة ١٩٣١م، فأعجب بها الشيخ (السيد رشيد رضا) ونشرها بعد ذلك في رسالة مستقلَّة بإذنه، وكان لها صدى في الأوساط العربية في مصر، ثم تتابعت المقالات والرسائل والكتب التي بلغت نحو مئتين، ما بين صغير وكبير، وسنتحدث عنها في الفصل الثاني بإذن الله تعالى.

زواجه وإقامته في حرم ندوة العلماء:

كانت الوالدة الحنون تنتظر تخرُّج ابنها البارِّ (أبي الحسن علي) وتوظُّفه، لتؤدي واجبها، وتفرح بأمنيتها كالأمهات الأخريات بعقد قرانه، وكانت قد اتفقت مع شقيقها السيد (أحمد سعيد الحسني) ليزوجه ابنته الصالحة الطيبة، وهي حفيدة الشيخ الصالح الرباني الجليل (السيد ضياء

النبي الحسني) وبنت بنت السيد (عبد الرزاق كلامي) صاحب (صمصام الإسلام) ترجمة (فتوح الشام) للواقدي شعراً، وكان الاهتمام كبيراً بهذا الزواج من قبل أخيه الأكبر الدكتور (عبد العلي) رحمه الله، فقد التمس من فضيلة الشيخ المحدِّث (حيدر حسن خان) عميد دار العلوم ندوة العلماء بأن يخطب خطبة الزواج، وأقام مأدبة فاخرة بالمناسبة لئلاَّ يشعر بفقدان والده، وكان قد رعاه كالوالد، وغشيه حبّاً ورأفة وشفقة، وتهلَّلت وجوه الناس بهجة وغبطة وسروراً.

ونقل الأستاذ الندوي بعد زواجه عائلته الصغيرة التي تضمُّ الوالدة وقرينته وأخته إلى بيت صغير متواضع في سكن دار العلوم، ولكنه لم يبقَ فيه طويلاً، لأن أخاه الأكبر لم يسرّه بأن يبتعد عنه إلى بيت آخر.

وبقي الأستاذ الندوي يدرِّس في دار العلوم ندوة العلماء، وكان جوّها ملائماً، وموافقاً لعقليته وفكره، وينسجم مع شعوره وأحاسيسه، وعواطفه ورسالته، وكان قد رزق أساتذة وزملاء يتَّحدون في الأفكار والنظرات والاتجاهات والميول والأهداف والرسالة التي كانت حركة ندوة العلماء قد تبنَّتها، وخطت خطوات وئيدة في نشرها وبثِّها في الأوساط العلمية والفكرية والدينية في الهند. يقول الأستاذ الندوي:

«ورغم قلَّة علمي وقصر باعي، وحالتي المتواضعة، كان من مقتضيات تلك الفترة من العمر أن يكون هناك انسجام بيني وبين طبيعة ندوة العلماء الفكرية والدينية، والثقافة التي تمثلها وتحمل لواءها، ولذلك لم أضطر لتكيفي مع هذه البيئة، ووضع نفسي في مكانها اللائق فيها إلى هجرة عقلية، أو رحلة ذهنية طويلة، بل شعرت كأنني انتقلت من حجرة أو زاوية في البيت إلى زاوية أخرى.

وقد كان من الأسباب وراء ذلك أيضاً أنني نشأت من البداية النشأة العقلية والعلمية في جوٍّ ندوة العلماء وفي ظلها، وقد تلقَّفتْ أذني من

الصغر أحاديث وروايات عرَّفتني بتاريخ ندوة العلماء، ورجالها ومؤسِّسيها الكبار، ووقَفَتْني على آرائها وأفكارها، فقد كان مربيَّ ووليَّ أمري أخي الأكبر، وأستاذي الشفوق الحبيب الشيخ (خليل بن محمد اليماني) وأستاذي الآخر هو عمُّنا السيد (طلحة الحسني) الذي تناول في بعض الجوانب تربيتي العقلية، كان كلٌّ واحدٍ منهم خرِّيجَ الندوة، والمقتطف من ثمراتها، والمستفيد بها[1].

هذه البيئة والتربية الفكرية والأجواء العلمية والأدبية جعلته يتشبَّع بروح ندوة العلماء ورسالتها الإصلاحية العامَّة الشاملة للمدارس والمعاهد والحركات الدعوية في البلاد، فركَّز جهوده على إصلاح المناهج والمقررات الدراسية، وترقية المناهج التعليمية، ورفع مستواها وتطويرها حسب مقتضيات العصر[2] بجنب التدريس فيها.

كانت اللغة العربية والأدب العربي أصيبا بلوثة أعجمية ذهبت بروائهما وبهائهما، وقيدتهما بسلاسل وأغلال أفقدت حريَّتهما وانطلاقهما وخفَّة روحهما وجمالهما، وذلك بظهور كتَّاب وأدباء في العصر الأخير، تربَّعوا على عرش الأدب العربي أمثال أبي إسحاق الصابي وابن العميد والصاحب ابن عبَّاد والخوارزمي والهمذاني والمعرِّي، فاخترعوا أسلوباً للكتابة اختلف عمَّا سبقهم، كانت الصناعة والسجع والبديع يغلب عليهم.

وجاء بعدهم أبو القاسم الحريري بمقاماته بنفس الأسلوب المسجَّع بل غلا فيه وتلاعب بالألفاظ المنمَّقة والكلمات المطرَّزة، وسار القاضي الفاضل على هذا الدرب، واتَّبع هذا المنهج الذي ورثه من بديع الزمان الهمذاني وأبي القاسم الحريري، وكانت له دَوْلة وصوْلة فسيطر على

(١) في مسيرة الحياة: ١/ ١١٣ ـ ١١٤.
(٢) المصدر السابق: ١/ ١١٢.

الأوساط الأدبية وتحكم على هذا الأسلوب الفريد، فقلَّده الأدباء والكتَّاب الذي خلفوه، فانشغلوا به، فأصيبوا وأصيبت اللغة العربية بالجمود والعقم إلى أن أمسك زمام الكتابة في البلاد العربية العلاَّمة ابن خلدون وفي شبه القارة الهندية الإمام ولي الله الدهلوي، واختارا أسلوباً طبيعياً متدفِّقاً بالحياة والقوة والجمال، أولهما في (المقدمة) وثانيهما في (حجَّة الله البالغة).

وانتعش الأدب العربي ونما وترعرع، وأخذ في العصر الحديث يستعيد قيمته ومكانته وحيويته ونشاطه، ولكن المعاهد والمدارس كانت ولا تزال تتشبَّث بذلك المنهج والمقرَّر الدراسي القديم الذي لم يكن يبيح لنفسه أن يختار أسلوباً غير الحريري ومقاماته. وزاد الطين بَلَّة حينما ألَّف كاتب هندي شيعي كتاباً لتعليم اللغة العربية لواحد من سادته الإنكليز (نفحة اليمن) فلم يكن الكتاب إلا دُمْية يلهو بها طالب ومدرِّس، أو لعبة يتسلَّى بها دارس في أوقات الفراغ والتسلية ليس غير، ولم ينتبه إلى وضع منهج جديد حيوي مفيد في ضوء أدب الإمام الدهلوي أولئك الذين كانوا يحمدون فعلته، ويعتبرون أنفسهم تلامذته، وينتمون إلى مدرسته، بل إنهم تغافلوا وغضُّوا النظر عن تلك الثروة الأدبية الزاخرة، ولم يستفيدوا منها إلا نادراً كما أشار إليه العلامة الشيخ عبد الحي الحسني في رسالته (المقرَّرات الدراسية لمدارس الهند وتطوراتها) وتأسَّف على هذا الموقف المؤلم سماحة الشيخ الندوي وقال:

«وقد جنى هذا الإهمال على اللغة والأدب وعلى الكتابة والإنشاء وعلى التأليف والتصنيف وعلى التفكير، فقد حرمه مادة غزيرة من التعبير وباعثاً قوياً للتفكير»[1].

---

(١) مقدمة مختارات من أدب العرب، ص١٧.

وحقّاً أدّى بدارسي وطلبة هذا المنهج والمقرَّر إلى أنهم لم يكونوا يقدرون على إبداء ما يجيش في صدورهم من خواطر وأفكار في هذه اللغة الكريمة، وقد قال عنهم أحد كبار العلماء الهنود: بأنهم يعرفون عن اللغة العربية كثيراً ولا يعرفون اللغة العربية! لأجل هذا جعل الدعاة والمؤسسون لحركة ندوة العلماء بالهند من أهدافها الأساسية تعليم اللغة العربية كلغة حيّة متدفِّقة بالحيوية وخصوبة الفكر، وزاخرة بالأدب الرفيع والثقافة العالية، وعُنوا بها كثيراً، ولكن مضت فترة لم تتهيأ لهم مقررات ومناهج مجدية ومستقلة مع إنشاء دار العلوم كنموذج مثالي لها.

ولمّا تسلّم رئاسة ندوة العلماء الدكتور (عبد العلي الحسني) رحمه الله، وكان قد نهل من المناهل القديمة والحديثة، وعرف مطالب العصر وحاجاته، وأيقن بأن اللغة العربية هي لغة المستقبل ولغة العلم ولغة الدعوة، فلا بدَّ من العناية بها وإتقانها ونيل القدرة التعبيرية فيها كتابة وحديثاً، وكان العلاّمة السيد (سليمان الندوي) رحمه الله يشعر بمثل ما يشعر به الدكتور الكريم ويقدّر، فاتفق هوى نفوس هؤلاء القائمين على إنعاش الروح العلمية والأدبية في حرم دار العلوم، فاهتموا بها.

وحالفهم الحظُّ بأن انتخب من بين الأساتذة الأكفاء سماحة الشيخ أبي الحسن علي الندوي مدرِّساً للتفسير والأدب العربي، وكان قد قرأ على أستاذين عربيين هما: الشيخ (خليل اليماني) والدكتور (تقي الدين الهلالي)، واكتسب منهما التذوُّق الأدبي والقدرة البيانية والتعبيرية في اللغة، وكان قد ورث من آبائه التعبير بواسطة اللغة والأدب، إعداد الجيل الناشئ للمكارم والمآثر والآداب الزكية الطاهرة والأخلاق النبيلة، فألقى نظرة على المناهج والكتب الدراسية العربية والمصرية خاصة، وكانت جيدة، ولكنها كانت تحتوي على التقاليد والأعراف والظروف والأوضاع والأوساط التي أُلِّفت فيها هذه الكتب، فلم تكن تفي بحاجة الطلبة الهنود،

ولم تكن تسترعي انتباههم، لأنها لم تكن مألوفة ومعروفة عندهم، والإنسان بطبعه مجبول على ما يشعر ويرى ويشاهد، فعقد العـزم على تطويـر اللغة والأدب العربي، وإعداد منهج أدبيٍّ مفيد للطلبة الكبار والصغار، نظراً لما كانت حركة ندوة العلماء ترى وتحلم.

كتب الشيخ الندوي رحمه الله يقول:

«وكانت ترنو (ندوة العلماء) إلى تعليم اللغة العربية كلغة حيَّة نابضة يخاطب بها العرب أنفسهم، وتكون وسيلة الدعوة الإسلامية فيهم، وتُنشئ في طلاب المدارس العربية وخريجيها ملَكَة الخطابة والإنشاء والتحرير، وقـد أنشـأت هذه الحركـة لأجل هذا الغرض، ولتحقيق هذه المشـاريع والخطط، وعرض نموذج حيٍّ لذلك أمام المدارس الإسلامية في الهند دار العلوم المركزية التابعة لها في لكهنؤ عام ١٣١٢هـ باسم دار العلوم ندوة العلماء»[1].

وبما أن سماحة الشيخ رحمه الله كان يدرِّس الأدب العربي، فبدأ بإعداد مجموعة من النثر من العصر الإسلامي الأول إلى العصر الحديث في جزأين اثنين باسم (مختارات من أدب العرب)، تلقَّاهما النـاس بـالقبول وحظيا باختيارهما في المقررات الدراسية في بلادنا والبلاد العربية وبلاد الشام بخاصة، كما حكى أديب العربية الكبير والمفكر الإسلامي العظيم الأستاذ علي الطنطاوي رحمه الله. يقول الطنطاوي: «إذا كان الدليل على ذوق الأديب اختياره، فحسب القرَّاء أن يعلموا أننا عرضنـا من أمد قريب كتب المختارات الأدبية لنتخيَّر واحداً منها نضعه بين أيدي تلاميذ الثانويات الشرعية في الشام، وذهـب كـلٌّ واحـد مـن أعضـاء اللجنـة ـ وكلُّهـم مـن الأدبـاء ـ يبحـث ويفتش، فعدنا جميعاً وقد وجدنا أنَّ أجود كتب المختارات المدرسية

---

(١) في مسيرة الحياة: ١/ ٣٩ـ٤٠.

وأجمعها بفنون القول وألوان البيان، مختارات أبي الحسن»[١].

ولمَّا طبع الكتاب في دمشق عام ١٩٥٧م أخذ كاتب هذه الأسطر نسخة منه وقدَّمها إلى علاَّمة الشام والعضو في المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) وأستاذ الأدب وعلوم القرآن في الجامعة السورية (جامعة دمشق) فضيلة الشيخ (محمد بهجة البيطار) رحمه الله، فبدأ يقلِّب الصفحات ويهتز ويطرب ويثني على جودة الاختيار وحسن التذوُّق الأدبي للمؤلِّف.

وكان هذا الكتاب ومقدِّمته البذرة الأولى للدعوة إلى حركة الأدب الإسلامي، ثم تلته مقالة لسماحة الشيخ الندوي نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق بعد انتخابه عضواً فيه بعنوان: (المكتبة العربية في حاجة إلى بحث وغربلة جديدة)، وتبلورت إلى فكره تأسيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية عام ١٩٨٠م بدعوة من سعادة الدكتور (عبد الرحمن رأفت الباشا) رحمه الله في منزله بالرياض، وقد ضمَّ المجلس سعادة الدكتور (عبد القدوس أبو صالح) حفظه الله نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي في البلاد العربية حالياً[٢]، والدكتور (عبد الباسط بدر) الأمين العام للرابطة، والدكتور (أحمد البراء الأميري)، وكاتب هذه الأسطر، وتقرَّر بأن يُلتمس من سماحة الشيخ أبي الحسن علي الندوي قبول رئاسة رابطة الأدب الإسلامي، وكلِّف هذا العاجز بالمراسلة إليه للموافقة، وقد عقد مؤتمر عام للأدباء في حرم ندوة العلماء بالهند وتقرَّر تأسيس (رابطة الأدب الإسلامي العالمية) وانتخب سماحة الشيخ الندوي رئيساً لها عام ١٩٨١م، وقد أصبحت الآن أغزر رافد وأكبر منهل عذب طاهر للأدب في العالم.

ثم توجَّه فضيلة الشيخ (محمد الرابع الحسني الندوي) حفظه الله

---

(١) مقدمة كتاب: المسلمون في الهند.

(٢) أصبح رئيساً للرابطة بعد وفاة الأستاذ الندوي. (الناشر)

الرئيس العام لندوة العلماء[1] بإشارة من سماحة الشيخ إلى إعداد مجموعة أدبية أخرى (منثورات)، ثم ألَّف كتابه (جغرافية العرب)، وكان قد جاء الكتاب في أوانه، فلا يمكن أن يبقى دارس اللغة العربية في غنى عن مثل هذا الكتاب في دراسته الأدبية والتعرُّف على المدن والأمكنة التي نشأت فيها اللغة العربية ونمت وترعرعت.

وكان قد بدأ سماحة الشيخ رحمه الله بإعداد منهج دراسي للأطفال واعتنى بأدب الأطفال خاصة، وكان الأمر قد شغل باله، لأنه كان من أعسر الأعمال وأصعبها وأهمِّها في نفس الوقت، فأخذ يعدُّ هذه السلسلة (قصص النبيين للأطفال) في ثلاثة أجزاء، ثم ألَّف الجزء الرابع بعد فترة من الزمن، وأتمَّ السلسلة لهذه القصص بكتابه عن سيرة خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم في ذي القعدة عام ١٣٩٧هـ أكتوبر ١٩٧٧م، وكان قد أكمل سلسلة (القراءة الراشدة) ثلاثة أجزاء عام ١٩٤٤م وقال عن هذه المجموعة للأطفال:

«وقد شعرت بعد بدئي بهذا العمل، بأن الله تعالى ألانه ويسَّره لي، فكنت أكتب عفواً مرتجلاً دون كلفة حتى كأنني أتكلم، وقد التزمت فيه بأربعة أمور:

١ ـ أن تكون ثروة الألفاظ فيه أقل القليل، ولكنها تنقش في ذهن الطالب بكثرة التكرار والإعادة.

٢ ـ أن يكون الكتاب في لغة القرآن، وتوضع الآيات الكريمة في محالِّها كالفصِّ في الخاتم.

٣ ـ أن يشتمل على تعليم العقائد الأساسية (التوحيد، والرسالة،

---

(١) أصبح رئيساً للندوة بعد وفاة الشيخ الندوي رحمه الله. (الناشر)

والمعاد) وتلقينها للطالب بطريقة عفوية.

٤ ـ أن تبسَّط القصص وتزوِّد الأطفال بما يُكرِّه إليهم الكفر والشرك والمعاصي، وتحبِّب إليهم الإيمان والعقيدة، وترسخ فيهم الاعتقاد بعظمة الأنبياء وجلالة مكانهم، وكل ذلك بطريق لا يشعر الطالب بثقله وأنه يُلقى عليه، بل يتلقَّاه ضمناً وعفواً وينسجم معه»[1].

لقيت هذه المجموعة القصصية حظوة وقبولاً لدى المعنيين بأدب الأطفال وتعليمهم وتربيتهم، وفي الطليعة كان الأديب الألمعي الكبير الأستاذ (سيد قطب) الشهيد، الذي كان قد أعدَّ بمساهمة بعض زملائه قصصاً للأطفال، فقد مارس العملية بنفسه، يقول في تقديمه لهذه المجموعة:

«لقد قرأت الكثير من كتب الأطفال ـ بما في ذلك قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ وشاركت في تأليف مجموعة (القصص الديني للأطفال في مصر، مأخوذ كذلك من القرآن الكريم، ولكنني أشهد في غير مجاملة أن عملِ السيد أبي الحسن في هذه القصص التي بين يدي جاء أكمل من هذا كلِّه، وذلك بما احتوى من توجيهات رقيقة وإيضاحات كاشفة لمرامي القصة وحوادثها ومواقفها، ومن تعليقات داخلة في ثنايا القصة، ولكنها توحي بحقائق إيمانية ذات خطر، حين تستقرُّ في قلوب الصغار والكبار.

جزى الله السيد أبا الحسن خيراً، وزاده توفيقاً، وهدى به الأجيال الناشئة التي تحيط بها العواصف والأعاصير، وتنشر في طريقها الأشواك، وتدلهمُّ من حولها الظلمات، وتحتاج إلى الهدى والنور والرعاية والإخلاص في حياتها ورعايتها، ومن الله التوفيق»[2].

---

(١) في مسيرة الحياة: ١/ ١٤٥.

(٢) المقدمة لكتاب قصص النبيين.

قرّرت معاهد ومدارس المملكة العربية السعودية وبعض البلدان العربية الأخرى هذه المجموعة القصصية في مناهجها الدراسية، وكان الجزء الأخير (خاتم النبيين ﷺ) يدرَّس في شعبة تعليم اللغة العربية لغير الناطقين في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وقد صاغ سماحة الشيخ الندوي رحمه الله مجموعة أخرى من حكايات الصحابة رضي الله عنهم في لغة سهلة وأسلوب شيّق باسم (قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال)، مراعياً فيها عقلية الأطفال ومستواهم بحيث يستسيغونها بدون سآمة وملل، والمجموعة كلُّها بالإجمال تتمثل في تهيئة أجواء ملائمة للتذوُّق والتشويق، والتقريب والتعوُّد على القراءة والتعلُّم إلى جانب رفع المعنوية والخلق النبيل والعقيدة القويمة، وإنَّ طريقة التكرار والإعادة وضرب الأمثلة أجدى نفعاً في مثل هذه السنِّ المبكِّرة من الأسئلة الكثيرة المتراكمة والتمارين المكدَّسة والتدريبات المثقلة بحيث يقع الطفل بمثل هذه الأعمال المنزلية في إرهاق شديد، وتعقيدات يطير بها عقله وفكره، فقد لاحظنا في قراءة هذه القصص بعبارات متكرِّرة معادة تتخللها آيات قرآنية أوفر فائدة وأجدى نفعاً، وصارت كالمسك إذا كرَّرته يتضوَّع.

واستمرَّت محاولات الشيخ الندوي رحمه الله المشكورة في تطوير المناهج فألَّف تحت رعايته فضيلة الشيخ (محمد الرابع الحسني الندوي) كتاباً في الأدب والنقد (الأدب العربي بين عرض ونقد) وكان الكتاب مهماً جداً في إنشاء ملَكَة التذوُّق للأدب في الطلاب، وأكمل بتأليف الجزء الثالث لكتاب (معلّم الإنشاء) الذي بدأ بتأليف جزأين منه فضيلة الشيخ (عبد الماجد الندوي) رحمه الله.

وكان يدرِّس في دار العلوم لندوة العلماء في تاريخ الأدب العربي

كتاب الأستاذ (أحمد حسن الزيات)، لكنه لم يكن يفي بالحاجة، ولا يلائم الفكر السليم القويم لتاريخ الأدب، فقام فضيلة الأستاذ (محمد واضح رشيد الندوي) بتأليف تاريخ الأدب العربي فجاء دراسة واسعة عميقة للعصر الجاهلي، واستفاد من الكشوف الحديثة والتحقيقات الجديدة والدراسة النقدية الواعية للعصر الجاهلي، فظهر الكتاب جيداً نافعاً يستوعب الحقائق التاريخية والدراسات السليمة، وقد شاركه في إعداد الجزء الثاني فضيلة الأستاذ (محمد الرابع الحسني الندوي)، وهو كذلك على المستوى الجيد الحسن الرفيع.

وقد دُعي سماحة الشيخ الندوي إلى جامعة عليكرة الإسلامية، وأعدَّ منهج مستوى الليسانس (بكالوريوس) والماجستير في الجامعة، وألَّف كتاباً باسم (إسلاميات) لا يزال يدرَّس فيها، ولما أنشئت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، شارك في وضع سياسة التعليم وخطط البحث فيها.

بقي سماحة الشيخ الندوي رحمه الله يدرِّس الأدب العربي وعلوم القرآن وتفسيره طيلة عشر سنوات، أعدَّ خلالها كتباً ومؤلفات للمقرَّرات الدراسية، وأنشأ جوّاً ملائماً لتعليم اللغة والدراسة، وبيئة صالحة للتذوُّق الأدبي، والمستوى العلمي والفكري، والخلقي والديني، وترك التدريس في دار العلوم عام ١٩٤٤م ولكنه بقي وثيق الصلة بندوة العلماء، يُسدي لها خدمات جليلة وتوجيهات رشيدة.

بدأ يركِّز جهوده في الدعوة، وإعداد رسائل ومؤلفات إصلاحية فكرية واعية، وانتخب وكيلاً للشؤون التعليمية في عام ١٩٥٣م، ثم اختير رئيساً عامّاً لندوة العلماء في سنة ١٩٦١م.

* * *

الدعوة والإصلاح

كان سماحة الشيخ رحمه الله إلى جانب وظيفته التدريسية يكتب مقالات في اللغة العربية وينشرها في صحيفة (الضياء) الصادرة عن ندوة العلماء بإدارة زميله الشيخ (مسعود عالم الندوي) رحمه الله، وكان يساعده في الإدارة والتحرير، وتنشر له كبرى المجلات العربية مثل (المنار) و(الفتح) الصادرتان من مصر، وكانت مجلة (الندوة) الأردية تنشر مقالاته بالأردية، وكان مديراً لها فترة من الزمن.

وأنشأ في عام ١٩٤٣م بمساهمة صديقه الحميم فضيلة الشيخ عبد السلام القدوري الندوي (إدارة تعليمات إسلام) لحلقات دروس القرآن والحديث وتعليم اللغة العربية لكبار الموظفين الحكوميين الذين كانوا يرغبون في دراسة الإسلام من المصادر الإسلامية الأولى. وأصدر صحيفة أسبوعية اسمها (تعمير) كانت لسان حال هذه الإدارة، وكانت هذه النشاطات كلّها للدعوة وإصلاح المجتمع، فقد كان سماحة الشيخ بطبعه (داعية مصلحاً) وكان قد أعدَّ لها، وكانت أسرته وأعلامها الغرّ الميامين قد تركوا أسوة حسنة في هذا الحقل.

وكانت أمه الفاضلة رحمها الله، ترفع يديها الكريمتين وتبتهل إلى الله عزَّ وجلّ، وتتغنّى بشِعرها، وتقرض قصائد تتضرَّع بها إلى ربِّها وخالقها «بأن يختار ابنها (عليّاً) للدعوة، ويتقبَّله قبولاً حسناً، ويهدي به خلقاً كثيراً، ويعمر بجهوده الدعوية والإصلاحية الكون والعالم،

ويخصب به ويخضرَّ التراب والأرض وبساتين الدنيا، ويتنوَّر مصباح العالم وسراج الدنيا، وتتَّقد جمرات القلوب، ويسود الإسلام والسلام والوفاق والوئام في كل ناحية من نواحي الدنيا»[1].

تقبَّل الله دعوات أمه، وتحققت أحلامها، وأمنيات أخيه الدكتور عبد العلي، بإذن الله وتوفيقه.

كان قد خرج عام ١٩٣٩م برحلة استطلاعية إلى مدن البلاد وجوانبها البعيدة الشاسعة، وتعرَّف على أمكنة ومراكز ومؤسسات دعوية ودينية وعلمية وشخصيات، تأثر باثنتين منها خاصة، وأعجب بهما كثيراً، وقويت صلاته معهما، واستفاد منهما وتربَّى عليهما إلى أن وافاهما الأجل، وهما الشيخان الجليلان: الشيخ الربَّاني المربِّي عبد القادر الرائي بوري، والداعية الإسلامي المخلص الشيخ محمد إلياس رحمهما الله تعالى، فتلقَّى من الأول التربية الروحية الربَّانية ومن الثاني: الدعوة والإصلاح.

وكان قد تأثَّر بكتابات الداعية الإسلامي والمفكر الكبير العلامة السيد أبي الأعلى المودودي رحمه الله، ودعاه إلى ندوة العلماء، ونظَّم له محاضرات وأحاديث، وتوثَّقت معه صلات متينة، يجتمعان في الهند وباكستان، ويشتركان في الندوات والمؤتمرات في البلاد العربية، وفي اجتماعات رابطة العالم الإسلامي بمكَّة المكرَّمة، وجلسات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوَّرة، وكانا عضوين فيهما، وكان يثني على ما قام به السيد المودودي من إعداد مجموعة طيبة ونخبة ممتازة من الكتب والشباب انتفع بهم العرب والعجم ولا يزالون.

ولكنه لم يستطع أن ينسجم معه في بعض آرائه ومنهج دعوته، وكان

---

(١) مترجماً من مجموعة شعرها (باب رحمت)، ص٢٥.

الشيخ الندوي بطابعه الرباني الجامعي الشامل لا يطمئن ولا يسكن إلى التحزُّب والحصر في تجمُّع ضيِّق محدود مقيَّد، وكان يريد أن تكون الدعوة والعمل الإسلامي متوافقاً ومتلائماً بين الجميع، ويكون الولاء والوفاء للإسلام، وللإسلام وحده.

انقطع سماحة الشيخ رحمه الله إلى الدعوة، واصطنع لنفسه منهجاً لها متأسِّياً برسول الله ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم، فقام مع جماعات من الدعاة برحلات دعوية في المدن والأرياف والقرى في الهند، وخرج بمثل هذه الرحلات إلى البلاد العربية: الحجاز ومصر والسودان وبلاد الشام: سورية والأردن وفلسطين، وسجَّل لقاءاته وانطباعاته في مذكراته (مذكرات سائح في الشرق العربي) وفي مؤلفاته الأخرى، وألقى محاضرات وخطباً وأحاديث في الاجتماعات والندوات والحفلات، كلها دعوية إصلاحية.

وأقام في مصر نحو ستة أشهر، وكان كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) قد طبع في القاهرة، فعُرف في الأوساط الدينية والدعوية والعلمية، والتقى بقادة الجماعات والجمعيات، وكبار المشايخ والعلماء والأدباء، ورحَّب به الجميع ونظموا له محاضرات واجتماعات وأحاديث، فألقى محاضرة في دار الشبان المسلمين بعنوان: (الإسلام على مفترق الطرق) والثانية بعنوان: (الدعوة الإسلامية وتطوراتها في الهند)، ودعته دار العلوم لإلقاء محاضرة فكان موضوعها: (شعر إقبال ورسالته)، وألقى حديثاً آخر عن الدكتور محمد إقبال بدعوة من جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة) بعنوان: (الإنسان الكامل في نظر الدكتور محمد إقبال)، وأقام الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين حفلاً لتكريمه، فألقى فيه محاضرة قيِّمة، وكانت الدعوة توجَّه إليه من قبل الجهات المختلفة فيتحدث فيها ويلقي المحاضرات، وكثيراً ما كان يلقي في اليوم الواحد أكثر

من محاضرة وحديث.

وعقد الكاتب الكبير والداعية المفكر الشهيد سيد قطب ندوة في منزله حول كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) وكانت دَعَوية علمية حافلة، ونشرت له رسالته في هذه الفترة (اسمعي يامصر) فعلَّق عليها سيد قطب رحمه الله: «قرأتُ اسمعي يامصر وياليت مصر قد سمعت».

وزار المدن المصرية الأخرى وبعض الأرياف، ورافقه في هذه الزيارات فضيلة الشيخ الداعية محمد الغزالي رحمه الله، وكان فضيلة الدكتور العلامة يوسف القرضاوي حفظه الله إذ ذاك طالباً في الجامع الأزهر، وكان خطيباً في جامع قريته، فدعا سماحة الشيخ الندوي رحمه الله إلى قريته، وطلب منه إلقاء خطبة الجمعة، وتجوَّل معه في القرية لدعوة الأهالي للصلاة في المسجد والاستماع لحديثه، وبات مع الشيخ الليلة في المسجد.

ورغب سماحة الشيخ أن يجتمع مع شباب الإخوان المسلمين، فعقدوا حفلة كبيرة ألقى فيها محاضرة بعنوان: (أريد أن أتحدث إلى الإخوان) وكانت له معهم لقاءات وأحاديث في بيوتهم في مجالس خاصة، لأن (جماعة الإخوان) كانت قد حُلَّت بعد اغتيال الإمام حسن البنَّا رحمه الله، وحظر على الإخوان النشاطات وأعمال الدعوة وطوردوا، وقتلوا وزجوا في السجون.

وكان سماحة الشيخ منذ أن سمع عن الإمام البنَّا وجماعته وقرأ عنها في الهند، كان شديد الشوق إلى التشرُّف بلقاء الإمام حسن البنا رحمه الله والاستفادة منه، ولم يخرج من الهند إلى أي بلد عربي إلا للحجِّ عام ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م، وكان الإمام رحمه الله يشهد الموسم للدعوة واللقاءات، ولكنه لم يستطع أن يحضر هذا الحجّ لأسباب قاهرة، ولمَّا زار

مصر في سنة ١٩٥١م كان المرشد العام قد استشهد، فكان يتأسَّف ويتحسَّر على حرمانه من رؤيته ولقائه، وكان له سلوة وعزاء في اللقاء مع قادة الإخوان وشبابهم، وتشرَّف بلقاء فضيلة الشيخ أحمد عبد الرحمن البنَّا والد الإمام البنَّا رحمهما الله، وعرف منه ومن رجالات الإخوان أموراً جيدة عن الإمام البنَّا يقول: «وقد حصلتُ منهم على معلومات صحيحة معتبرة عن حياة الإمام وجوانب شخصيته المتنوعة، وشعرت بعد الاجتماع بهؤلاء ومقابلتهم أنني لم أحرم ـ كليًّا ـ زيارة الإمام»[1].

كانت الرحلة قد بدأت من الهند في ٤/ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٠م، وشملت الحجاز ومصر والسودان وسورية والأردن وفلسطين، ثم الحجاز، وانتهت بالوصول إلى مدينة لكهنؤ الهند في تشرين أول (أكتوبر) ١٩٥١م، وكانت للدعوة والتبليغ، ولتذكير الإخوة العرب برسالتهم التي سادوا بها العالم، وقادوا بها البشرية إلى العقيدة السمحة وإلى السلام والوئام، وإلى الحق والعدل والخير، وإلى الحب والأخوة والمواساة والمساواة وإلى المجد والعز والكرامة.

وبما أنَّ سماحة الشيخ الندوي رحمه الله كان عالماً وأديباً وكاتباً وخطيباً فالتقى بجميع الأوساط، وخاطب كل مجتمع من المجتمعات، ورحَّبت به كل طبقة من طبقات البلاد، وأكرمته ودعته للمحاضرة والحديث، حتى الملوك والأمراء والحكَّام، فكانت رحلة موفَّقة ناجحة.

* * *

---

(١) في مسيرة الحياة: ١/ ٢٣٠.

الرحلات والانطباعات

عاد سماحة الشيخ رحمه الله من هذه الرحلة الدعوية الموفَّقة التي دامت أربعة عشر شهراً في قلب العالم العربي النابض، متفائلاً ومتحمِّساً وممتلأً بالحيوية والنشاط والعواطف الجيَّاشة لإصلاح المجتمع الإسلامي، ثم تقريب الوسط الوطني (الهندوكي) والإنساني إلى الإسلام ومبادئه وقيمه ودعوته ورسالته، وكان شعاره دائماً: «إلى الإسلام من جديد» وكان مقره إذ ذاك مركز جماعة التبليغ والإصلاح، قريباً من بيته الذي يقيم فيه أخوه الأكبر، كان يلقي أحاديث ودروس القرآن الكريم والحديث النبوي مع زميله الكريم فضيلة الشيخ محمد منظور النعماني رحمه الله، فقد كانت له معه رفقة طويلة في أعمال الدعوة وإصلاح المجتمع.

وقد بثَّ الوئام والسلام والوفاق بين الفئات والجماعات المختلفة من المسلمين وغير المسلمين من المواطنين الهنادك، فقد كانت تعقد جلسات حافلة كبيرة ضخمة في (منتزه أمين الدولة) بمدينة لكهنؤ يحضر فيها آلاف مؤلَّفة من جمهور المسلمين والمواطنين، كانت هذه الخطب والمحاضرات نواة لتأسيس حركة (رسالة الإنسانية) منذ عام ١٩٥١م من قبل سماحة الشيخ، وهي لا تزال تؤتي ثماراً يانعة حلوة. ولم يكتف بأن يعقد مثل هذه الحفلات في مدينته وضواحيها، بل بدأ سكان الولايات والمدن الأخرى في البلاد يعقدون ندوات ومؤتمرات يرأسها أو يكون ضيف شرف فيها، وكان الإقبال من قبل جميع فئات المجتمع والشعب،

وكان النفع عامّاً وشاملاً.

وكان الشيخ رحمه الله شديد المواظبة على أعماله اليومية، ونظَّم أوقاته من الصباح إلى المساء ونسَّقها تنسيقاً دقيقاً. كان كاتب هذه السطور طالباً في دار العلوم ندوة العلماء حينذاك، ويقيم في الحيِّ نفسه وبقرب من منزله ومقرِّه مع أخيه فضيلة الشيخ محمد مرتضى أمين عام مكتبة ندوة العلماء، فيحضر إليه يومياً يكتب له الرسائل والمكاتيب، ويبيِّض مسوَّدات الكتب، وهو يملي عليه في كثير من الأحيان.

وكان أبناء أخته الثلاثة الأفاضل يشاركونه في هذه الأعمال الدعوية الحركية والعلمية والأدبية، ويسيرون على الدرب، وهم السادة الأساتذة: الشيخ العالم الأديب الشاعر محمد الثاني الحسني رحمه الله تعالى، وفضيلة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي، وفضيلة الشيخ محمد واضح رشيد الندوي حفظهما الله.

وأمّا فضيلة الشيخ الكاتب العبقري محمد الحسني ابن أخيه الدكتور عبد العلي رحمهما الله فكان يقضي معظم وقته معه أثناء الدراسة والبحث والتأليف، وكان قد انصبغ بصبغته وانسجم معه وتوافقا في الفكر والروح والطبع والعواطف والميول، حتى في أسلوب الكتابة والخط والمنهج.

كان قد مضى على زيارة البلاد العربية خمس سنوات، ولم يكن يأمل بزيارة أخرى قريبة، ولكنه تلقى رسالة من أخيه وصديقه الفاضل الدكتور مصطفى السباعي، المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية، يخبره فيها عن إنشاء كلية الشريعة في الجامعة السورية (جامعة دمشق) ويرجوه بأن ينضمَّ إلى هيئة التدريس في الكلِّية ولو لسنة أو سنتين، ولكن سماحة الشيخ اعتذر إلى سعادة الدكتور لأعماله في الهند، بَيْد أنه كتب إليه يعرض بأن يلقي محاضرات عن (التجديد والمجدِّدين في الإسلام)

فـوافقت لجنة الكلِّية، ومن ثَمَّ الجهات الحكوميـة المختصة، ووُجِّهـت الدعـوة إليه، فقبلها فرحاً مستبشراً، ووصل إلى دمشق في أول نيسـان (أبريل) ١٩٥٦م بأول طائرة من الخطوط الجوية الهندية التي بدأ طيرانها بهذه الرحلة.

كـان الترحيب حارًاً، وكـان من بين المسـتقبلين فضيلـة الدكتور مصطفى السباعي عميد كلِّية الشريعة والمراقب العام للإخوان المسلمين في سورية، وفضيلة الشيخ مصطفى أحمد الزرقا وزير العدل في الحكومة السورية وأستاذ كلية الشريعة والحقوق، وفضيلة الأستاذ محمد المبارك وزير المواصلات، وأستاذ كلية الشريعة والآداب، والشيخ الصالح السيد محمـود الحافظ رحمهم الله، والطلبـة الهنود في كلية الشريعة وتلاميـذ سماحة الشيخ الندوي: الدكتور سيد رضوان علي، والدكتور محمد راشد، وكاتب هذه الأسطر.

كانت أول محاضرة ألقيت على مدرج الجامعة في ٤ أبريل ١٩٥٦م وآخـرها في ٣٠/ مايو ١٩٥٦م، وانتهت المحاضرات الثمـان (بحجَّـة الإسلام الغزالي مصلحاً اجتماعياً) وأضيفت إليها محاضرتان عند الطبع عن الشيخ عبد القادر الجيلاني ومولانا جلال الدين الرومي رحمهما الله، وقد طبعت جامعة دمشق هذه المحاضرات بعنوان (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) وكتب لها مقدِّمة قيِّمة الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله، ثم أكمل سماحة الشيخ هذه السلسلة في أربعة أجزاء كبيرة، طبعتها دور النشر العربية مراراً.

أقام سماحة الشيخ رحمه الله ثلاثة أشهر في سورية، قضى معظمها في دمشق، وسافر في خلال هذه المدَّة إلى لبنان لثلاثة أيام، زار بيروت، والقلمـون، والأوزاعي، وبحمدون، وطرابلس، وألقى محاضرة في

مركز جماعة عباد الرحمن برئاسة رئيس المركز المهندس عمر داعوق، وفي طرابلس في مركز الجماعة الإسلامية بطلب من فضيلة الشيخ فتحي يكن، وحديثاً في خلية الملك سعود في بيروت.

الرحلة إلى تركية:

سافر إلى تركية عن طريق حلب في ١٢/ يونيو ١٩٥٦م وبات ليلة في مدينة حلب، وألقى محاضرة بعنوان (حاجتنا إلى إيمان جديد) في مركز الإخوان المسلمين فيها، وخاطب الشباب العربي بجرأة وقوَّة وبحرارة وشدَّة، وكان الحفل أذناً صاغية ساكتة صامتة كأنَّما على رؤوسهم الطير، وخرج إلى إستنبول بالقطار، وزار القسطنطينية وأنقرة وقونية، ولكن القطار تأخر عن موعده، فلم يصل المستقبلون، وكانت له أول زيارة، ولم يكن يعرف اللغة التركية، فوقع له ما لم يكن بالحسبان، وحكى القصة في كتابه (أسبوعان في تركية) وأخيراً التقى بالأخوة فاعتذروا له، وتأسَّفوا لما حدث لتغيّر موعد القطار، ورحَّبوا به ورفعوه على رؤوسهم، واستمعوا إلى أحاديثه ومحاضراته، وسرَّ سماحة الشيخ الندوي بهذه الزيارة لما لتركية من تقدير واحترام وإعجاب بخدماتها ومآثرها، ثم زار تركية أربع مرات لمؤتمرات رابطة الأدب الإسلامي، آخرها في أغسطس ١٩٩٦م للاشتراك في حفلة تكريم له أقيمت فيها.

المؤتمر الإسلامي في دمشق:

كان سعادة الدكتور سعيد رمضان صهر الإمام حسن البنّا رحمه الله قد التجأ مع عائلته وبعض إخوانه إلى دمشق، وبدأ يصدر مجلة (المسلمون) من دمشق، وكانت له نشاطات عظيمة واسعة في كل ميدان يهمُّ الإسلام والمسلمين، وكان محبّاً لسماحة الشيخ الندوي، وكان كثيراً ما يأخذه بعد صلاة العشاء إلى منزله، ويقضي سهرة علمية دعوية يغشاها عدد محترم من

العلماء وقادة الإخوان، قال له سماحة الشيخ ذات مرة: أنتم تأخذونني دائماً إلى منزلكم وتقعون أنتم وأهلكم في حرج ومشقّة، فأجاب مبتسماً: لستُ أنا آخذكم، بل إنَّ زوجتي التي هي بنت الإمام حسن البنا تصرُّ وتلحُّ عليَّ يومياً وتقول: إنَّ الشيخ الندوي يشبه أبي، فأريد أن أراه كل يوم، أجد فيه سلوة وسكينة وعزاء[1].

كان الدكتور سعيد نظَّم بهذه المناسبة مؤتمراً إسلامياً عن قضية فلسطين وأيَّده وسانده دولة الدكتور محمد معروف الدواليبي حفظه الله، ووصل سماحة الشيخ من تركية في ليلة السادس والعشرين من يونيو ١٩٥٦م وكانت الجلسة الأولى في الصباح ولم يكن قد كتب المقالة التي وعد بإلقائها في المؤتمر، فكتب في الصباح المبكر بعنوان: (ارتباط قضية فلسطين بالوعي الإسلامي) وكان لها وقع جميل في المؤتمر، وقد شارك في المؤتمر كبار رجال الفكر والدعوة من العالم الإسلامي، كان منهم: الدكتور محمد ناصر رئيس حزب ماشومي الإسلامي ورئيس الوزراء الأسبق لأندونيسية، والداعية العلاَّمة السيد أبو الأعلى المودودي، والمفتي العام العلامة محمد شفيع من باكستان، والشيخ محمد مستنصر الله من الهند، وكان قد اختير لرئاسة الجلسة الأولى الدكتور محمد ناصر، ونائبي الرئيس سماحة الشيخ أبي الأعلى المودودي، وسماحة الشيخ أبي الحسن علي الندوي، وكان سماحة الشيخ الندوي قد قام بترجمة كلمة الشيخ المودودي إلى اللغة العربية في الجلسة الختامية للمؤتمر بمدرج جامعة دمشق، بطلب من فضيلة الشيخ المودودي رحمه الله تعالى.

وتقرر بعد المؤتمر العودة إلى البلاد، وقدِّمت إليه من قبل الجامعة السورية مكافأة على محاضراته كأستاذ زائر، فاعتذر كعادته عن قبولها،

---

(١) سيكون لي حديث خاص عن هذه الزيارة وتأثيرها وانطباعاتها بإذن الله.

ولما أُلح عليه التفت إلى سعادة عميد كلية الشريعة بالنيابة الدكتور يوسف العش، وقال: إن هذا المبلغ منحة مني لطلبة كلية الشريعة!!.

أذكر هنا كلمة صغيرة سجلها عند مغادرته دمشق: «لقد كانت الإقامة بدمشق لثلاثة أشهر من أحلى أيام العمر وأطيب ساعاته، لم تصْفُ لي ولم يتم السرور والأنس ـ غير الحرمين الشريفين ـ في أي مكان آخر، فقد كان مزيجاً من تفتُّح القلب وانشراح الصدر والصحة البدنية وجمال الطقس ولطفه، وحبِّ الأصدقاء وحفاوتهم البالغة، وجمال البلاد الطبيعي، والروحانية الخاصة ـ التي لعلَّها كانت لأجل أنها مرقد الصحابة الكرام رضي الله عنهم، والأولياء الكبار والصالحين ومركز الفتوحات الإسلامية ـ كان المزيج من كل ذلك أنشأ جوّاً من السرور واللذة والمتعة، وقد كان ذلك العهد، عهد الهدوء والسكينة والرخاء، وعهد (الإسلامية) لأهل دمشق ولأهل الشام كلهم أيضاً»[١].

وكانت له زيارة ثالثة لسورية في ١٩٦٤م والرابعة في عام ١٩٧٣م وكانت قصيرة، وحدث له فيها أمر مؤسف[٢]، وكان قد عاد إلى الهند عن طريق بغداد وباكستان في أول يوليو ١٩٥٦م، وكانت هذه أول زيارة له لبغداد ليومين، ثم زار العراق على رأس وفد رابطة العالم الإسلامي عام ١٩٧٣م وشملت هذه الرحلة كلاًّ من أفغانستان وإيران ولبنان وسورية والأردن، وكانت لقاءات ومقابلات مع الشخصيات ورجال الحكم وألقى محاضرات وأحاديث في الجلسات والندوات حضرها العامة والخاصة، وطبعت مذكرات هذه الرحلة أيضاً بعنوان: (من نهر كابل إلى نهر اليرموك).

---

(١) في مسيرة الحياة: ١/ ٢٦٤ـ٢٦٥.
(٢) راجع كتاب (من نهر كابل إلى نهر اليرموك).

وكـان قد بدأ بأول زيـارة لمصر حديثـاً إلى كل بلد حلَّ فيه أو زاره بعنوان (اسـمعي) وكانت أحاديثه التالية: (اسمعي يامصر)، (اسـمعي ياسورية)، (اسمعي يازهرة الصحراء ـ الكويت)، (اسـمعي يا إيران)، و(مـن الجزيرة إلى العالم)، و(من العالم إلى الجزيـرة)، ثم ضمَّ هـذه الأحاديث كتابُه (العرب والإسلام).

وكذلك سجَّل انطباعاته عن رحلاته في كتب منها: (أسبوعان في تركية) و(أسبوعان في المغرب الأقصى)، وسجَّل انطباعاته عن رحلاته إلى تركستان، وآسـية الوسطى، وماليزية، وسري لنكة، وبورمة في كتابات أخرى.

وكانت أول زيارة له لأوروبة عام ١٩٦٣م بدعوة من المركز الإسلامي بجنيف، ثم زار إنكلترة وفرنسة وأسبانية (الأندلس)، وأدى ركعتين في مسجد قرطبة، وألقى أحاديث ومحاضرات في جامعات لندن وايدنبرة، وزار مـرة أخرى أوروبـة في سـنة ١٩٦٤م، وطبعت محاضراته بعنـوان (حديـث مع الغرب) وأُنشـئ مركز أكسـفورد للدراسـات الإسلامية في جامعـة أكسـفورد عام ١٩٨٣م، وانتخب رئيسـاً له، فقدَّم مقالـه القيِّم (الإسلام والغرب) وتتابعت زياراته لحضوره جلسات مركز أكسفورد، ودعته منظمة الطلبة المسلمين في أمريكة وكندا عام ١٩٧٧م، وزار مدنها وجامعاتها وألقى محاضرات والتقى بـرجال العلم والاستشراق فيها، وكان له أحاديث دعوية شاملة، ثم كانت له زيارة أخرى مفيدة لأمريكة ١٩٩٣م، وكان قد زار بلجيكة سنة ١٩٨٥م.

وكان شيخنا كثير الزيارات والرحلات لحضور الندوات والمؤتمرات الإسلامية والعلمية والأدبية في داخل الهند وخارجها، فقد كـان عضواً في المراكز والمؤسسـات والجامعـات أو رئيسـاً وأميناً عامّـاً لبعضها، كان

عضواً مؤسِّساً لرابطة العالم الإسلامي بمكَّة المكرَّمة، وعضو المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنوَّرة، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق والأردن، وعضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) في الأردن، وعضواً في رابطة الجامعات الإسلامية، وانتخب رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بإنكلترة، واختير لجائزة الملك فيصل العالمية، ومنح جائزة الشخصية الإسلامية عام ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م بدولة الإمارات العربية المتحدة، وقدمت إليه جائزة سلطان بروناي للدراسات الإسلامية عام ١٩٩٩م.

وأقيمت له حفلات تكريم من قبل: الشيخ الأديب عبد المقصود خوجه في جدة بالمملكة العربية السعودية، ورابطة الأدب الإسلامي العالمية بإستنبول تركية، وعقدت الجامعة الإسلامية بمدينة (بهكتل) بالهند حفلة تكريم تقديراً لخدماته للإسلام والمسلمين والإنسانية، ومنحت له شهادة الدكتوراه الفخرية من قبل جامعة كشمير، وكان عضواً ورئيساً في مجالس الجامعات الأهلية والجمعيات والجماعات ويشرف على عدد كبير منها ويرعاها.

كان سماحة الشيخ ينتهز كل هذه الفرص للدعوة والتوجيه، ولم يكن يكتفي بالاشتراك والحضور في هذه الجلسات والندوات والمجالس، بل يجري مقابلات ولقاءات، ويلقي محاضرات ويوجِّه أحاديث دعوية، ويذكِّر برسالة الإسلام، وينبِّه إلى المسؤوليات نحو الحفاظ على الكيان والقيم والمبادئ التي هي تراث المسلمين الغالي، وينتقد الشعوب والحكام والأمراء وأولي الأمر بما وقعوا فيه من البعد عن واجبهم، وبما يحدق بهم من الأخطار المدمرة والتيارات الفكرية والاتجاهات القومية والحضارة الغربية الماجنة، والشيوعية والاشتراكية الباطلة والعلمانية الفتاكة، والتحديات المختلفة للأمة الإسلامية.

وكثيراً ما كان يخاطب الناس بحماسة وقوة وشدة ولباقة، ويثير الغيرةَ الدينية والحميَّة الإسلامية، وكانت كلماته هذه تجد آذاناً صاغية وقلوباً واعية وعقولاً ذكية متَّقدة بالفكرة والنشاط والعمل المنتج المثمر، وهذا هو سرُّ تأثيره في الأمم والشعوب.

* * *

منهج وأسلوب

دخل أستاذنا الندوي رحمه الله في مضمار الحياة حين فقد العالم الإسلامي الخلافة الإسلامية العثمانية، حيث تآمرت عليها القوى الغربية كلُّها، وحرم المسلمون من تكأة يستندون عليها، وسيطر الاستعمار على البلاد، وهيمنت الصليبية والإرساليات التبشيرية والماسونية والصهيونية العالمية على الوطن، وبدأ يدبُّ اليأس والشعور بالخيبة والفشل إلى قلوب المسلمين.

ولكن وُفِّق بعض قادتهم في مصر، وتركية، والجزيرة العربية والهند وإفريقية الشمالية، فقاموا في وجه هذا التيار المعادي الجارف سدًّا منيعاً، واشتدَّ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، وأنتج تأسيس جماعات وحركات إسلامية أعادت إلى الأمة ثقتها، وبثَّت في قلبها الأمل والنور.

وتزعزعت الصليبية، وتقهقرت السيطرة الاستعمارية، ولكنها غرزت مخالبها الجارحة بوساطة بعض العناصر الباغية الخائنة، وأعدَّتها للحفاظ على مصالحها، وكانت حركة الخلافة في البلاد من أقوى الحركات التي واجهت القوى الاستعمارية، وساهمت فيها الجبهات الإسلامية والهندوكية، وهي التي تبلورت إلى حركة الاستقلال التي فازت بتحرير البلاد عام ١٩٤٧م.

شاهد سماحة الشيخ الندوي كل هذه الصراعات والمعارك،

والدعوة إلى الحفاظ على الكيان الإسلامي، وكان بين يديه غابر الإسلام وحاضره، واستفاد من التجارب والخبرات، واتَّعظ من العبر والدروس التي تلقَّاها من التاريخ الإسلامي القديم والمعاصر، فبرز داعية واعياً حكيماً محنَّكاً، يتَّقد فكره علماً وثقافة وحضارة، ويتحرَّق قلبه حزناً وأسًى على ما بلغ إليه المسلمون من حالة يُرثى لها، وعلى ما خسر العالم بانحطاطهم وذلِّهم وخذلانهم بترك واجبهم المقدس وتراثهم العظيم.

ووضع الشيخ الندوي منهجاً قويماً للدعوة والإصلاح على بصيرة وتجربة وعلم، واختار أسلوبين:

١ ـ الخطب والمحاضرات في الأوساط الخاصة والعامة واللقاء معهم والتحدّث إليهم، والجلوس بينهم، والتودُّد والتعايش والتعاضد والتآزر والحياة معهم في السرَّاء والضرَّاء.

٢ ـ الكتابة والتأليف وتحرير الكتب والرسائل، التي كان شعارها: (إلى الإسلام من جديد) فخاطب عقول الرجال والنساء والأطفال، وشحن قلوبهم بنور العقيدة وجَذوة الإيمان، وابتكر أسلوب ضرب الأمثلة وتقديم نماذج للدعوة، فوجَّه الأنظار والقلوب إلى تربيتها تربية ممتازة، وتوعيتها توعية ناضجة بإلقاء أضواء ساطعة بيِّنة على العقيدة والعبادة والسلوك والتاريخ والأدب والبيان، ببراهين من الكتاب والسُّنة والسيرة النبوية المطهَّرة، وحياة الصحابة رضي الله عنهم، ونماذج عملية رائعة من دعوة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، وتمثَّلت حياته هو قدوة صالحة لما يدعو إليه، ولمن يوجه الدعوة، وكان منهج الدعوة مقتبساً من القرآن الكريم، ثم من الحديث والسيرة النبوية، ومن ربَّاهم النبي الكريم ﷺ[1].

---

(١) يراجع للتفصيل مقالة المؤلف: منهج سماحة الشيخ الندوي للدعوة (عدد ممتاز لمجلة البعث الإسلامي عن فقيد الأمة الإسلامية) وروائع من أدب الدعوة، =

وكانت أهم محاور الدعوة: المسجد، والمنهج التعليمي، والكتاب، والسلوك الاجتماعي، ويعتبر منهج الشيخ الندوي في الدعوة مدرسة متميزة قائمة بذاتها، بعيدة عن التحزُّب والتعصُّب الذي سقط فيه الكثير، تؤثر خُلُق السماحة واليسر على مسالك التشدُّد والتحرُّج، عنوانها: الاحتساب والترفُّع عمَّا في أيدي الناس، وهو مستمدٌّ من مقالة الأنبياء جميعاً: «ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على ربِّ العالمين» وبذلك تثير الاقتداء، وهي بلا شكٍّ من مدارس العمل الإسلامي الجديرة بالدراسة والانتفاع.

درس سماحة الشيخ الندوي الظروف والملابسات في العالم الإسلامي وفي الهند بخاصة دراسة عميقة واعية، فخرج بمنهج أفضل وأصلح وأجدى للدعوة هو: «التركيز على وصول الإيمان إلى الحكام، وتبنِّيه لقضية الإسلام، بدل التركيز على وصول جماعة مؤمنة إلى كراسي الحكم»[1]، وتخمرت له هذه الفكرة بتجربة الإمام أحمد السرهندي في الهند الناجحة الذي حوَّل الوضع المنذر بالقضاء على الإسلام أيام الامبراطور المغولي جلال الدين أكبر إلى وضع سليم قويم، بحيث اعتلى العرش ملك مسلم ملتزم غيور (أورنغ زيب عالمكير) الذي اعتبر سادس الخلفاء الراشدين.

ويقول عن الداعية الذي يسير على طريقه هذا: «أنا أؤمن بأن الداعية المخلص لا يكون داعية إلا إذا كان ملهماً مؤيَّداً من الله، فكانوا يراقبون الدولة، ويراقبون اتجاهاتها وميولها، ويرون هل المجتمع الإسلامي إلى

= وكتاب (منهج أفضل في الإصلاح).

(١) فقه الدعوة، ص١٤.

خير أم إلى شرٍّ، وإلى صلاح أو إلى فساد؟ وهل هناك اتجاه موافق للإسلام أم معارض للإسلام؟ فإذا كان هناك اتجاه معارض للإسلام جرُّوا الحبل من بعيد وباحتياط، وأشاروا على الملك بما هو صالح للعباد والبلاد، وبما فيه تأييد للدين وتقوية للمسلمين، وقد تكون لهم يد خفية في اختيار ملك أو عزل ونصب».

سار سماحته على هذا الدرب مستفيداً من التجربة الموفَّقة التي فاز بها الإمام أحمد السرهندي في تغيير الوضع، وتقرير مصير الهند[1]. وأراد من الدعاة وأعلام الصحوة الإسلامية والجماعات والأحزاب الإسلامية في العالم كله أن يستفيدوا من هذا المنهج، ومن هذا النموذج المثمر للدعوة في عصرنا هذا، وفي هذه المرحلة الدقيقة التي يمرُّ بها المسلمون بخاصة، ويتجنبوا مناهج وطرقاً تؤدي بهم إلى التناحر والتشاجر والتطرُّف، ثم إلى إيقاف عجلة الركب، لا سمح الله.

وقد اعتنى سماحة الشيخ رحمه الله بجنب المنهج وأسلوب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، بالداعية وتثقيفه وتربيته، وبالسمات البارزة للدعوة والداعية وجوانبها الحاسمة، ومجالاتها الرئيسية الملائمة[2].

وطبقاً لهذا المنهج كانت رحلاته ولقاءاته، ومراسلاته ومحاوراته ومحادثاته مع الشعوب والعلماء ورجال الفكر والعاملين في حقول مختلفة، ومع الدعاة، والملوك والأمراء والحكام في العالم كله وفي بلاده الهند، وفي العالم العربي بخاصة، لأنه كان يعقد عليه آمالاً كباراً، يبرهن عليه ما خطَّه قلمه السيَّال في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط

---

(١) من نفحات الإيمان ص١٠، ويراجع للتفصيل (منهج أفضل للدعوة، والمسلمون في الهند، والدعوة الإسلامية وتطوراتها في الهند).

(٢) يراجع للتفصيل مقال المؤلف الذي ألقي في حفلة التكريم بتركية.

المسلمين؟) في الفصل الثاني (زعامة العالم العربي) خاصة، وفي مؤلفاته الأخرى، ركَّز على أهمية العالم العربي، ودعاه إلى القيادة من جديد برسالته الوحيدة الخالدة (الإسلام) والإسلام وحده، وأشار إلى دَوْر الحجاز والجزيرة في العالم في كتابه: (كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب).

وكذلك ركَّز جهوده على هذا الأسلوب والمنهج للدعوة في بلاده، فقد ذهب إلى مدينة ممبئ للتحدث مع رئيس المنبوذين وواضع الدستور الهندي بعد الاستقلال، بعد أن أعلن أنه يترك الهندوكية البرهمية ويفكر في اعتناق دين آخر مع طائفته، فعرض عليه الإسلام وقدَّم إليه كتباً ومؤلفات عن الإسلام، وكان عمره إذ ذاك واحداً وعشرين عاماً. ثم توجَّه إلى إنشاء (رسالة الإنسانية) لدعوة الشعب الهندوكي إلى الإسلام وتأليف قلوبهم وتقريبهم ومؤانستهم.

ولم يغفل عن الإصلاح والدعوة ونشر التعليم والثقافة بين المسلمين، فساهم في تأسيس المجلس التعليمي الديني، والحفاظ على قانون الأحوال الشخصية، والمجلس الاستشاري العام، والتعاون والمؤازرة مع الحركات والجماعات الإسلامية في كل ناحية من نواحي البلاد، فقد كان جلُّ نشاطاته وأعماله ومؤلفاته ومحاضراته ورحلاته تتركز على الدعوة إلى الله وإصلاح المجتمع، وكان هتافه دائماً: إلى الإسلام من جديد أيها المسلمون.

* * *

حسن الختام

قضى شيخنا المربِّي الجليل حياة حافلة بالمنجزات والعطاءات المتنوعة، المختلفة الجوانب، المليئة بالمكرمات والمحاسن والأمجاد والمآثر المفعمة بالمواهب والكفاءات والقدرات والنشاطات والأعمال المتعدِّدة النواحي، التي يندر أن تتجمَّع في شخص واحد، ولا يكاد من سمع عنها يصدِّق إن لم يشاهد عن كثب ورواية صِدْق!!.

ولكننا إذا أمعنا النظر في مولده ونشأته، في أسرة وبيئة كانت تتحلَّى بمثل هذه القدرات المتنوعة المختلفة استقرَّ الصدق واليقين في قلوبنا، وقد أشار إلى هذا في مقدمة كتاب نشر في حياته فقال: «لقد نشأت بصفة خاصة على حبِّ التفنُّن في الفضائل، والجمع بين الأشتات، بل الأضداد من الفضائل الإنسانية، وأنواع العلوم والمعارف، والآداب والثقافات، وعلوِّ الهمَّة، والقدرة الفائقة على التنسيق بينها، وتسخيرها للوصول إلى غاية مثلى، وخدمة العلم والدين، حتى لو أدى ذلك إلى المشاركة في علوم وآداب يتحاشى عنها كثير من علماء الدين، ويعدُّونها من حثالة العلوم، و(براية) الآداب.. ونشأت كذلك على حبِّ من يوفِّقه الله ويقوّيه على الجمع بين الرياستين: العلمية والعملية، والحسنين: الدنيا والآخرة، والنقيضين (في عرف الناس) من إمارة أو وزارة من جانب، والاشتغال بالتأليف والتدريس، أو التربية والإرشاد، والإصلاح وإزالة الفساد في جانب آخر»[1].

---

(١) الأمير سيد صديق حسن خان للمؤلف ص ٦، صدر من دار ابن كثير بدمشق.

وبهذه القدرات المتنوعة، وبتوفيق من الله عز وجل استطاع أن يقدِّم مكتبة غنية زاخرة، وخدمات عظيمة ضخمة، وأعمالاً جليلة نافعة، تلقتها الأمة بالقبول.

بلغ ذروة المجد والكرامة، وقمَّة القبول والشهرة والحبِّ والتكريم، إذ فاجأه مرض مُضْنٍ هو الجلطة (الفالج) بالجانب الأيمن من جسده المبارك، فأصيبت اليد اليمنى واللسان، وذلك في اليوم السادس عشر من شهر آذار (مارس) عام ١٩٩٩م، وبلغ النبأ بسرعة كلَّ بقعة من بقاع الأرض، وارتفعت الأيدي للتضرُّع والابتهال إلى الله عزَّ وجل لشفائه، وفي الحرمين الشريفين خاصة، وتحلَّق حوله الأطباء الحاذقون الأخصائيون، وحوَّلوا مقرَّه إلى مستشفى صغير، لأن سماحة الشيخ لم يرضَ بأن ينتقل إلى مستشفى أهلي أو حكومي، وتحسَّنت صحته بعد علاج مركَّز وخدمات طبيَّة تخصُّصية، ولكن أنهكه هذا المرض، واشتدَّ الضعف والإرهاق ونشأت أمراض أخرى، أقلقت بال أقربائه وتلاميذه ومحبيه والمسلمين وغيرهم من عارفي فضله.

وبدأ الشيخ يشعر بقرب أجله، فكان يلتمس من كل غادٍ ورائح الدعاء بحسن الختام، ويردد: اللهم لقاؤك، اللهم أحسن خواتيم أعمالي.

دام المرض نحو تسعة أشهر في أمل ويأس، وذهبتُ إليه قبيل شهر رمضان، فرحَّب بي، وبدأ يتحدث كعادته كلما أجلس عنده، عن دمشق وعن الشهور الثلاثة التي قضاها فيها أستاذاً زائراً في جامعة دمشق لإلقاء محاضراته عن (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) وقال: إنها من أحلى الأيام في حياتي، ودعا لها ولأهلها بالخير والأمن والسلام والوئام.

وسألته: مَنْ مِن الشخصيات المعاصرة أعجبتم بها؟ فأجاب: الإمام حسن البنَّا، والدكتور مصطفى السباعي والأستاذ محمد المبارك،

والدكتور سعيد رمضان، والأستاذ علي الطنطاوي، والشيخ عبد العزيز ابن باز، وفي الهند من الشخصيات المحبَّبة شيخي وأستاذي مولانا أحمد علي اللاهوري، ومولانا حسين أحمد المدني، ومرشدي الشيخ عبد القادر الرائي بوري، وشيخ الحديث مولانا محمد زكريا الكاندهلوي رحمهم الله.

وسألته عن أحبِّ مؤلفاته فقال: النبوَّة والأنبياء، والسيرة النبوية، وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟، والأركان الأربعة، والطريق إلى المدينة.

دار هذا الحديث في دار الضيافة بندوة العلماء لكهنؤ قبل وفاته بشهر، وخرجت في اليوم التالي (الثلاثاء) مع ابني أخته الفاضلين الكريمين: فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي، وفضيلة أخي الأستاذ محمد واضح الحسني الندوي حفظهما الله إلى قريته (تكيه كلان) فذهبنا إلى سماحة الشيخ نسلِّم عليه ونستأذنه، فودعني بدعواته الصالحات وسألني: هل ستأتي إلينا في رمضان؟ فقلت: سأحضر بإذن الله، فسرَّ وتهلَّل وجهه، وخاطب الأستاذ محمد الرابع الحسني وقال: قل للأولاد في القرية: إنني سأقدم إليهم قبل رمضان، وكان الأطباء قد قرَّروا بأن سماحة الشيخ سيقضي شهر رمضان في لكهنؤ لتسهيلات طبية، ولكنه استأذن الأطباء لقضاء العشر الأواخر من الشهر المبارك في (تكيه كلان).

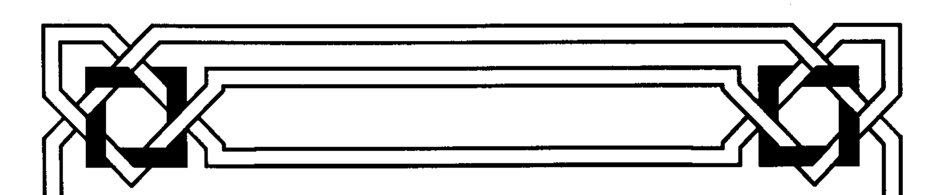
وسافر مع بعض أقربائه وعدد كبير من محبِّيه إلى القرية في ٢٠/ من رمضان و٢٩/ ديسمبر ١٩٩٩م، وكان يرافقه معالجوه الأطباء، ووصل بعضهم صباح الحادث، وكان اليوم الثالث من قدومه يوم الجمعة وهو آخر يوم لسنة ١٩٩٩م وآخر يوم لحياة سماحة شيخنا المربي الجليل، والداعية الرباني العظيم، والمفكر الإسلامي الشهير، والأديب الألمعي

والكاتب القديتر الفذّ الإمام السيد أبي الحسن علي الندوي، فقد وافاه الأجل في ٢٢ أو ٢٣ في البلاد العربية من رمضان المبارك ١٤٢٠هـ، وكان قد استعدَّ لصلاة الجمعة، وجلس ليتلو سورة الكهف قبل الصلاة كعادته، منذ الصغر، ولكنه شرع يتلو سورة (يس) عوضاً عن سورة الكهف، وقرأ عدَّة آيات، ثم أصابته فجأة سكتة قلبية لقي على أثرها ربَّه عزَّ وجل، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير.

كانت وفاة شيخنا ومرشدنا الندوي مأساة أليمة، وثُلْمة كبيرة، وكارثة عامة ضخمة للأمة والإنسانية على السواء، هزَّت القلوب، وأحزنت النفوس، وأدمعت العيون، وما نقول إلا ما قال رسول الله ﷺ متأسين به: «إنَّ القلب ليحزن وإنَّ العين لتدمع، وإنَّا (يا أبا الحسن) على فراقك لمحزونون».

اللهم اغفر له وارحمه، وأمطر شآبيب رحمتك على ثراه الطيب، وأدخله فسيح جناتك، وارضَ عنه وأرْضِه ياربَّ العالمين.

* * *



الفصل الثاني

تعريف بمؤلفاته (1)

١ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟

٢ ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام

٣ ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية

٤ ـ الأركان الأربعة

٥ ـ السيرة النبوية

٦ ـ النبوة والأنبياء في ضوء القرآن

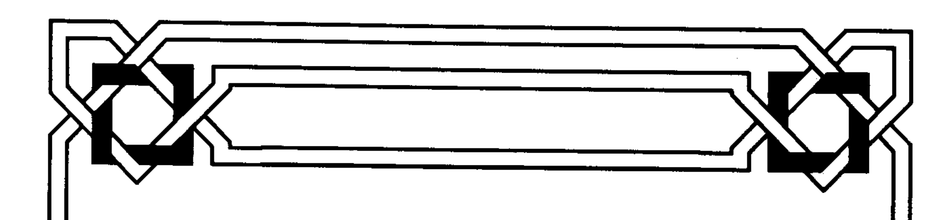
٧ ـ الطريق إلى المدينة

٨ ـ العقيدة والعبادة والسلوك

٩ ـ نحو التربية الإسلامية الحرة

---

(١) عرفنا بأشهر المؤلفات وأهمها، ووضعنا في نهاية الكتاب ملحقاً بأسماء جميع الكتب والرسائل التي حملت اسم المؤلف الكريم.



١٠ ـ ربانية لا رهبانية
١١ ـ العرب والإسلام
١٢ ـ إلى الإسلام من جديد
١٣ ـ المدخل إلى الدراسات القرآنية
١٤ ـ الصراع بين الإيمان والمادية
١٥ ـ المرتضى
١٦ ـ الإسلام: أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية
١٧ ـ المسلمون وقضية فلسطين
١٨ ـ المسلمون في الهند
١٩ ـ إذا هبت ريح الإيمان
٢٠ ـ مختارات من أدب العرب
٢١ ـ روائع إقبال

تعريف موجز بأهم مؤلفاته

يشرِّفني أن أفتتح هذا الفصل بكلمة أستاذنا الحبيب، الداعية العظيم والقائد الحكيم الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله، كتبها تقديماً لمحاضرات سماحة الشيخ أبي الحسن علي الندوي التي ألقاها في مدرَّج الجامعة السورية (جامعة دمشق حالياً) بدعوة منه، وأكملها المؤلف رحمه الله في أربعة أجزاء فيما بعد، ونُشرت باسم (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) قال فيها:

«في العالم الإسلامي حركة قوية ترمي إلى الرجوع للإسلام كشريعة تنظِّم شؤون الحياة، وتقيم الموازين القسط بين الناس، وتحقق للمسلمين تحرير ديارهم من الاستعمار، وتحرير عقولهم من الجهالة والخرافة، وتحرير مجتمعهم من الظلم والفقر والفوضى، وترى هذه الحركة أن الإسلام - في ينابيعه الصافية وتراثه السليم من عهد السلف الصالح - زعيمٌ بتحقيق هذه الأهداف على أتمِّ وجه وأكمله، كما أنه هو الطريق الذي لا بدَّ منه لنهوض العالم الإسلامي من كبوته وسُباته، وهذه الحركة قائمة في كل قطر من أقطار العرب والمسلمين، تجدها في القاهرة ودمشق وبغداد وعمَّان، ومكة المكرمة والكويت، وغيرها من الأقطار العربية، كما تجدها في باكستان والهند، وأندونيسية وغيرها من بلاد الإسلام، ولها في كل بلد قادة تميزوا بها بالصدق في عزائمهم للنهوض إلى هذه الغاية، والوضوح والصراحة في إعلان مبادئها والتبشير بها بين جماهير أمتهم.

ومن أعلام هذه الحركة المباركة الأستاذ أبو الحسن الندوي مؤلف هذا الكتاب، فهو عالم مصلح وداعية مخلص، دأب منذ آتاه الله العلم، على الدعوة إلى الله بقلمه ولسانه وبرحلاته الدعوية إلى أقطار العروبة والإسلام، وبجولاته الموفقة في ميادين الدعوة، حتى إنه اليوم ليُعدُّ من أبرز أعلام الإسلام والمصلحين في ديار الهند، وله تلاميذه المنتشرون في كل بلد، وله كتبه ومؤلفاته التي تتميز بالدقَّة العلمية، وبالغوص العميق في تفهُّم أسرار الشريعة، وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي، ووسائل معالجتها، عدا ما يمتاز به من روح مشرقة وخلق نبوي كريم، ومعيشة تذكِّرك بعلماء السلف الصالح في زهده وتقشُّفه وعبادته وكرامة نفسه»[1].

تعريف موجز جامع، وتحليل واقعي دقيق بقلم شخصية شقَّت طريقها سابراً غَوْر المكتبات وذخائر الفكر والعلم والفلسفة والتاريخ والاجتماع، ومارس التدريس والتثقيف والتربية، وعلا منابر الوعظ والنصح والإرشاد، وقاد الأمة بحكمة وحنكة إلى الخير والرشد والصلاح والفلاح، درس كتابات الشيخ الندوي وشخصيته فصوَّرها بريشة قلمه السيَّال تصويراً حقيقياً رائعاً.

لقد ورث سماحة الشيخ الندوي رحمه الله الكتابة والتأليف من آبائه الذين تركوا مكتبة إسلامية غنيَّة، استفاد منها، ونهل من منابعها العذبة، فبدأ يكتب منذ نعومة أظفاره، وصدرت له مقالات وهو في الرابعة عشرة من عمره، ونشر له كتاب عن شهيد أسرته وشهيد الإسلام السيد أحمد ابن عرفان رحمه الله، وهو في السادسة عشرة من عمره. فبارك الله في عمله هذا، وخلَّف وراءه مكتبة ضخمة في اللغة العربية والأردية،

---

(١) مقدمة الجزء الأول، ص١.

وتُرجمت معظمها إلى اللغات الإنكليزية والفرنسية والتركية والبنغالية والأندونيسية والفارسية والهندية واللغات المحلية الأخرى، والقائمة العربية التي أعدَّها السيد محمد طارق زبير الندْوي يبلغ عددها مئة وسبع وسبعين كتاباً ما بين كبير وصغير، ونحن هنا نقوم بتعريف موجز لأهمِّ ما صدر من المؤلفات وحظيت بقبول القراء العرب المكرمين، وغيرهم من قراء كتب الشيخ، وما أكثرهم!!.

* * *

١ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟

إنه أول كتاب نشر لسماحة الشيخ رحمه الله في القاهرة عام ١٩٥٠م، نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر التي كان يرأسها العالم المفكر والكاتب الشهير الدكتور أحمد أمين، بمقدمة عابرة سريعة، وصادف أن سافر مؤلف الكتاب إلى مصر في بداية عام ١٩٥١م ـ وكان قد مضى على صدور هذا الكتاب شهران أو أكثر ـ فكان بمثابة بطاقة تعريف للمؤلِّف الجليل، وكان هذا الكتاب قد احتلَّ في الأوساط العلمية والأدبية والدعوية والدينية مكانة مرموقة بسرعة عجيبة، لا يفسر إلا بأهمية موضوعه وقيمة محتوياته، فوقع له هوى في قلوب القرّاء العرب، وأنا أذكر هنا كلمة كتبها المؤلف الجليل بقلمه عمّا رآه في مصر من تأثير كبير لكتابه في أوساطها. يقول:

«واتفقت رحلة المؤلف إلى مصر في يناير ١٩٥١م بعد أن مضى على صدور هذا الكتاب شهران أو أكثر، فوجد أن الكتاب قد شقَّ طريقه إلى الأوساط العلمية والدينية، وحلَّ منها محلاً لم يكن يتوقعه المؤلف بل يحلم به، وقد قرئ في نطاق واسع من المثقفين والمعنيين بقضية الإسلام وانتفاضته، وصحوة المسلمين، وكان نشاط الإخوان المسلمين قد بدأ يدبُّ، وخُفِّف الخناق عليهم بعض التخفيف، وكان هذا الكتاب قد جاء في أوانه ومكانه، وتناغم مع شعورهم وما يدعون إليه، وكان الجرح عميقاً ودامياً: شهادة الإمام الشهيد وحَلُّ حركة الإخوان، فجاء هذا الكتاب مسلِّياً معزِّياً، بل كسلاح علمي يدافعون به عن فكرتهم، وشحنة جديدة وزاد ومدَّد (لبطاريتهم)، فقرؤوه في المعتقلات، وقرَّروه في منهج

الدراسة والمطالعة، واستشهدوا ببعض عباراته في المحاكم، واستقبلوا ـ بطبيعة الحال ـ مؤلفه بحماس وحبٍّ، وكان الكتاب خير معرِّف للمؤلف الزائر الجديد، وممهِّد للثقة به والحديث معه»[١].

وأمّا المؤلف الجليل فكما ذكرنا في القسم الأول، فإنه ترعرع وشبَّ وعاش آلام المسلمين وأحلامهم، وكان يفكِّر ويتحرَّق على ما وصلوا إليه من الخسران والخذلان، وهل الخسارة هذه خسارة الأمة المسلمة وحدها أم هي للإنسانية جمعاء؟ وكان هذا الشعور قد تغلَّب عليه، وهو الذي قاده إلى تأليف هذا الكتاب كما يقول الكاتب الكبير الأستاذ محمد واضح رشيد الندوي:

«وتكون بواعث بعض التأليفات وجدانية وشعورية، يجد الكاتب فيها دافعاً إلى التأليف للتعبير عن مختلجات صدره، ولإبلاغ القارئ ما وصل إليه تفكيره في موضوع مهمٍّ يشغل بال الكثيرين، وقد يكون المؤلف مضطراً إليه كما يكون الواقف على مكان عالٍ وهو يرى غيره أمام هوَّةٍ سحيقةٍ يكاد يقع فيها، فيناديه وينبِّهه لكيلا يقع فيها، أو كمن يشعر بألم فيكون مضطراً إلى التعبير عن ألمه، وقد كانت قصة تأليف كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) قصة مماثلة، إنها قصة الإحساس والوجدان»[٢].

ويشير سماحة الشيخ رحمه الله بنفسه إلى هذا الإحساس والوجدان فيقول: «لقد كنت أشعر برغبة غامضة ملحَّة لم أستطع أن أغالبها، كأن سائقاً يسوقني إلى الكتابة في هذا الموضوع ولو استشرت العقل واعتمدت على تجارب المؤلفين، وعلى مقاديرهم ومكانتهم العلمية، لأحجمتُ،

---

(١) قصة كتاب، ص١١، طبعة دار القلم بدمشق.

(٢) تقديم قصة كتاب، ص٣ـ٤.

ولعدلتُ عن هذه الفكـرة، ولو ذكرت ذلك لأحـد من العقلاء العلماء والكتَّاب الفضلاء، لأشاروا عليَّ بالعدول عن خوض هذه المعركة العلمية العقلية، ولكنه كان من الخير أنني لم أستشر أحداً، كما يقول الدكتـور محمد إقبال: «ليس من الخير أن تستشير عقلك دائماً، فنحِّ عقلك جانباً في بعض الأمور، فإنَّ العقل يصور لك الخوف في معارك خطيرة، ويشير عليك بالابتعاد عن مثل هذه التجارب المريرة»[١].

كان الموضوع خطيراً وجديداً، على عكس ما اعتاده الناس، ولم يطرقه الكتَّاب والمؤلفون والمفكرون، وكلَّما تعرَّضوا لقضية المسلمين وخسارتهم وانحطاطهم وتخلُّفهم حصروها في أسباب وحوادث ربطوها بالثـورة الصناعية في أوروبـة، أو بنهضة الغرب الحديثـة أو بانقراض الخلافـة الإسـلامية أو، أو. . . ولكنّ المؤلف الفاضل قد تخطَّى هذا الطريق المرسوم العادي وربط خسارة العالم بانحطاط المسلمين، وحرمان الدنيا بتخلُّف الأمة الإسلامية، كأنَّ المسلمين هم العامل العالمي المؤثِّر في مجاري الأمور في العالم كله[٢].

كان الموضوع يحتاج إلى مطالعة واسعة عميقة، وإلى دراسة واعية جامعة، وهي تحتاج إلى مصادر عربية وأجنبية كثيرة وافرة، وهي قليلة في هذه البلاد النائية عن مركز العروبة والعربية، والنازحة عن الكشوف والبحوث الغربية الحديثة، وكانت الأيام، أيام حرب عالمية، الروابط والأواصر والمواصلات متقطِّعة، فقد كانت بداية التأليف في الأربعينيات.

ولكن مؤلف الكتـاب النابغة العبقري كان قـد درس المؤلفات القديمة والحديثة وتاريخ العالم وتاريخ أخلاق أوروبة، وكان وثيق الصِّلة

---

(١) قصة كتاب، ص١٤ ـ ١٥.

(٢) المصدر السابق، ص١٩.

ببعض المكتبات الغنيَّة الزاخرة التي لا تألو جهداً في تقديم كل كتاب يحتاج إليه القارئ المرتاد إلى نقل هذه المكتبات، فعقد العزم وشمَّر عن ساق الجدِّ، لإعداد هذا الكتاب القيِّم المثير، وأجهد نفسه، وواصل الليل بالنهار، وبدأ يجمع المعلومات ويلتقط، ويرتاد المكتبات ويراجع المصادر، ويقابل الشخصيات ورجال العلم والفكر، ويستأذنهم في ارتياد مكتباتهم الشخصية. لقد حكى لي وهو في بيت فضيلة الشيخ (عبد الوهاب الصلاحي) رحمه الله في دمشق، يملي عليَّ مقالته عن (ثلاثة أيام في لبنان) فقال: «سألت فضيلة الشيخ عبد الماجد الدريابادي[1] عن بعض المراجع الإنكليزية والأوروبية التي تتعلق بموضوعي، فقال: توجد كلُّها في مكتبتي ويمكنك أن تستفيد منها، فكتبت إليه عن موعد وصولي إلى قريته (درياباد) وكانت تبعد من مدينة لكهنؤ خمسين كيلو متراً، وكان القطار ينطلق من لكهنؤ في الصباح الباكر ويعود في المساء، فكانت لي فرصة نهار كامل.

وصلت إلى منزل فضيلة الشيخ حسب الموعد فرحَّب بي، وسألني عن برنامجي، فقلت له سأبقى طول النهار أنتفع من المكتبة أخرج منها للصلوات فحسب، ولا أتغدَّى، وأعود قبل العشاء بإذن الله فقال: مرحباً. ونادى الخادم فقادني إلى المكتبة حول طاولة كانت جميع الكتب التي ذكرتها مرصَّعة ومنسَّقة عليها، وعندها قلم وأوراق للكتابة، وتركني فيها وراح، وجلست أقرأ المصادر وأكتب ما أريد، ولا أشعر إلا بالخادم يحمل إليَّ بين الفينة والفينة كأساً من شراب الليمون أو شراب الرمان أو التفاح أو ما يشبه ذلك من المشروبات الباردة المثلجة، وكانت الدنيا صيفاً،

---

(١) كان من كبار المفكرين والفلاسفة الإسلاميين والكتَّاب البارزين

وكان الحـرُّ شديداً، وعكفت على عملي، لا ألتفت يميناً ولا شـمالاً، حتى أكملت بغيتي، وإذا بالشيخ الفاضل العطوف الوقور على باب المكتبة، فعرفـت أن موعد القطـار العائد إلى مدينتي قـد حان، فقمتُ وشـكرت فضيلة الشيخ رحمه الله وودَّعته، وعُدت فرحاً مستبشراً بعملي هذا النهار المفيد المثمر.

إنه نموذج واحد ذكره سماحة الشيخ رحمه الله لسعيه المتواصل وجهده الكبير لإعداد هذا الكتاب الذي تلقَّاه الناس بالقبول والإعجاب من الخاصة والعامة، ودهشوا بعنوان الكتاب: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) وأحبُّوه لموضوعه ومحتواه، فقد أخبرني من رافقه في رحلته الأولى إلى مصـر عام ١٩٥١م بعد الحج مباشرة، فقال: إني ذهبت إلى جـدَّة لأحجز ثلاثة مقاعد لسماحة الشيخ الندوي وزميليه المرافقين في باخرة نقل بأقرب فرصة إلى السويس، ولم أستطع، ومضت أيام، وساورني اليأس، فقرَّرت أن أقابل قائد الباخرة، ونجحت فرجوته بلطف وقلت له: إن عالماً جليلاًمن بلادنـا يريد زيـارة مصر، فلـو تكرَّمتم بحجز ثلاثـة مقاعـد في باخرتكم، فاعتذر أولاً، ثم التفت إليَّ فجأة وسألني من هذا العالم الجليل؟ فأجبت: الشيخ أبو الحسن الندوي! فقال: من؟ مؤلف كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ قلت له: نعم! هو هو!! فسألني بلهفة وشوق: أين هو؟ خذني إليه، وتمَّ ماكنَّا نريد ونرغب، بفضل الله عز وجل ثم بفضل هذا الكتاب.

وكتب الداعيـة المفكِّر الفقيه والعالم الخطيب الدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله يقول:

«اتصل بي بعض الإخوة الهنود الذين يدرسون في مصر، وقال لي: هل تعرف الأستاذ أبا الحسن الندوي؟ قلت لهم: أليس هو صاحب كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسـلمين؟) قالـوا: بلى، قلت: ما شـأنه؟

قالوا: سيصل إلى القاهرة يوم كذا، قلت: أرجوكم أن توصلوني إليه بعد حضوره». وقال:

«كانت أيام الشيخ أبي الحسن في مصر أياماً خصبة مباركة، لا يكاد يخلو يوم منها عن محاضرة عامة يُدعى إليها، أو درس خاص يرتَّب له، أو لقاء خاص يعقد له».

ويقول عن الكتاب:

«وقد أُعجبت بالكتاب، ودللت عليه بعض الأصدقاء ليقرؤوه وإن كنت لا أعرف عن صاحبه شيئاً إلا أنه عالم هندي مسلم، وقد كتب الأستاذ أحمد أمين مقدِّمة الكتاب، ولكنه لم يوفِّ صاحبه حقَّه كما ينبغي.

والكتاب نظرة جديدة إلى التاريخ الإسلامي، وإلى التاريخ العالمي من منظور إسلامي، وهو منظور عالم مؤرِّخ مصلح داعية، يعرف التاريخ جيداً، ويعرف كيف يستخدمه لهدفه ورسالته، وقد ساعده على ذلك معرفته باللغة الإنكليزية، كما ساعده الحسُّ النقدي، والحسُّ الحضاري، والحسُّ الدعوي، والحسُّ الإصلاحي ـ وكلها من مواهبه ـ على تقديم هذه النظرة الجيدة من خلال كتابه الفريد»[1].

وقد أشار إلى هذه النقطة بصورة أكثر وضوحاً الأديب المفكر الإسلامي والداعية العبقري الشهيد سيد قطب رحمه الله في مقدِّمته القيِّمة للكتاب:

«ولكنه لا يعتمد في هذا على مجرَّد الاستثارة الوجدانية أو العصبية الدينية، بل يتخذ الحقائق الموضوعية أداته، فيعرضها على النظر والحسِّ

---

(١) انظر مقدمة الدكتور القرضاوي لكتاب (قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم)، ص٣٣ ـ ٣٤.

والعقل والوجدان جميعاً، ويعرض الوقائع التاريخية والملابسات الحاضرة عرضاً عادلاً مستنيراً، ويتحاكم في القضية التي يعرضها كاملة إلى الحق والواقع والمنطق والضمير، فتبدو كلها متساندة في صفه وصف قضيته، بلا تمحل ولا اعتساف في مقدمة أو نتيجة، وتلك مزية الكتاب الأولى»[1].

أذكر أنني حضرت أول فصل في كلِّية الشريعة بجامعة دمشق صباح الخامس عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٥٦م، وكانت المحاضرة للأستاذ محمد المبارك، فذكر خلال المحاضرة مصادر للدرس وقال: «إنَّ هناك أربعة كتب صدرت حديثاً يجب على كل طالب ودارس وباحث أن يدرسها وهي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ والعدالة الاجتماعية في الإسلام، والرسالة الخالدة، والإسلام على مفترق الطرق».

وكتب الشيخ محمد المجذوب يقول: «سمعت الأخ محمد المبارك يقول في وصف هذا الكتاب بأنه من خيرة الكتب التي صدرت في هذا القرن»[2].

وقد استأذن العالم المفكِّر الجليل الدكتور محمد يوسف موسى مؤلفَ الكتاب أثناء زيارته لمصر عام ١٩٥١م لإصدار الطبعة الثانية للكتاب من قبل جماعة الأزهر فأذن له، فأشرف الدكتور على طبع الكتاب وزيَّنه بمقدِّمة قيِّمة قال فيها:

«وأشهد لقد قرأت الكتاب حين ظهرت طبعته الأولى في أقل من يوم!! وأغرمت به غراماً شديداً، حتى لقد كتبت في آخر نسختي وقد

---

(١) مقدمة (ماذا خسر العالم) طبعة دار القلم بدمشق صفحة ٢٤.
(٢) علماء ومفكرون عرفتهم.

فرغت منه: إن قراءة هذا الكتاب فرض على كل مسلم يعمل لإعادة مجد الإسلام»[1].

كان الأديب الأريب والباحث الجليل الدكتور شكري فيصل رحمه الله في القاهرة يعدُّ أطروحة شهادة الدكتوراه، وفي هذا الزمن بالذات صدرت الطبعة الأولى لكتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) بمقدِّمة الدكتور أحمد أمين، الضعيفة الواهية التي تشير إلى أنَّ الدكتور لم يقرأ الكتاب إلا قراءة سريعة، فلم ينتبه إلى الموضوع الجديد المثير والمحتوى الثري القيِّم، وقرأ الدكتور شكري فيصل الكتاب وتأثر به وأعجب به إعجاباً كبيراً، فلم يملك إلا أن يمسك القلم ويدبِّج بريشته مقالة ضافية عن الكتاب، ونشرت في مجلة (الثقافة) التي كان يرأس تحريرها الدكتور أحمد أمين رحمه الله، أقتبس منها ما يلي:

«إنَّ ما يمتاز به المؤلف ويرتفع به إلى مصاف كبار المفكرين المسلمين... ذلك هو نظرته الشاملة العالية إلى تطوُّر الحياة الإنسانية... إن الأبواب الخمسة التي كسر عليها الكتاب لتدلُّ على هذا الأفق العالي الذي يجتذب التاريخ الإسلامي والتاريخ العام ويركزه فيه، فمن خلال صفحات الكتاب تستطيع أن تستصفي تاريخ الدولة الإسلامية، والدول الأوروبية من حيث الحياة الاجتماعية والدينية على السواء... أن تلمَّ بالخطوط العريضة للحركات الدينية وتلاقي هذه بالخطوط وتوازيها واقتراب بعضها من بعض وبُعد بعضها عن بعض، وبالاتجاهات العامة للحركات الخلقية، وما كان من انحدارها أو ارتفاعها، من إشراقها وأفولها...

---

(١) انظر مقدمة الدكتور لكتاب (ماذا خسر العالم) صفحة ١٨ من طبعة دار القلم بدمشق.

والواقع أن من مميزات هذا الكتاب أسلوبه الواضح، ولعل وضوحه أثـر من انعكاس وضوح الفكرة والإيمان بها وفيضها عن ذات المؤلـف العميقـة، على أنـه من نحو آخر قوي قويم، يملك قـدرة واضحـة على الاستشـهاد بالقرآن الكريم (مثال: ٥٥، ٥٦، ٥٣، ١٦٧) والحديـث الشريف في صفحات كثيرة، والشعر (٨٤..) واستثمار التراكيب القرآنية والعربيـة اسـتثماراً واسعاً، واختيـار العناوين وتلوينها اختيـاراً وتلويناً طريفين، ووضع الشاهد في مكانه الذي يجب أن يكون فيه، حتى لكأنه قطعة من النص، وكلها هذه سمات أسلوب مكين واضح»[١].

وأما الكتاب فهو يتوزع إلى خمسة أبواب ولكل باب فصول بعناوين وموضوعات نقدية تحليلية منطقية واقعية وهي كالتالي:

البـاب الأول: العصر الجاهلي، وفيـه فصلان: الفصـل الأول: الإنسانية في الاحتضار، والفصل الثاني: النظام السياسي والمالي في العصر الجاهلي، والباب مع فصليه يشتمل على دراسة العصر الجاهلي العالمي قبل بعثة الرسول القائد محمد ﷺ دراسة عميقة واعية للمجتمعات: الهنديـة والإيرانية والفارسـية والعربية والإغريقيـة اليونانية والرومانيـة، وتشير إلى النظرة الواسعة الشاملة للمؤلف الفاضل الذي راجع المصادر الأصلية لتلك البلاد باللغات الأردية والعربية والفارسية والإنكليزية التي كـان يتقنها، ويسـتعين ببعض معلـومات العلماء الذين كانوا يعرفـون اليونانية والسنسكريتية والعبرية واللاتينية، وقلَّ ما احتاج إليه.

ويليه الباب الثاني: من الجاهلية إلى الإسلام، وفيه أربعة فصول: الفصل الأول: منهج الأنبياء في الإصلاح والتغيير، والثاني: رحلة المسلم

---

(١) مجلة الثقافة: الصادرة في ٨/ ربيع الأول سنة ١٣٧٠هـ، ١٨ كانون أول (ديسمبر) ١٩٥٠م.

من الجاهلية إلى الإسلام، والثالث: المجتمع الإسلامي، والرابع: كيف حوَّل الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية؟.

والباب الثالث: العصر الإسلامي: وهو يحتوي على ثلاثة فصول: الأول: عهد القيادة الإسلامية، والثاني: الانحطاط في الحياة الإسلامية، والثالث: دَوْر القيادة العثمانية، نظرة جامعة ودراسة نقدية حيادية غير منحازة، تضرب على الوتر الحسَّاس، وتحدِّد التقصير والزلل واللامبالاة، وتنبِّه إلى الخطر المحدق بالمبادئ والقيم.

ويتبعه الباب الرابع: العصر الأوروبي، وهو يحتوي على أربعة فصول: الأول منها: أوروبة المادية، والثاني: الجنسية الوطنية في أوروبة، والثالث: أوروبة إلى الانتحار، والرابع: رزايا الإنسانية المعنوية في عهد الاستعمار الأوروبي.

وقد عرض المؤلف في هذا الباب الحضارة الأوروبية وتقدُّمها ونهضتها عرضاً صادقاً عادلاً، ثم أبان عن واقعها وحقائقها، وخلص إلى نتيجة وهي: أن ضررها أكثر من نفعها، وهي حضارة فتَّاكة سفَّاكة للإنسانية وقد بلغت إلى شفا جرفٍ هارٍ.

وأمَّا الباب الخامس فهو: قيادة الإسلام للعالم: وفيه فصلان اثنان: الأول منهما: نهضة العالم الإسلامي، والثاني: زعامة العالم العربي، وهو مسك الختام، وعصارة دراسة مفكر واع عميق المطالعة، واسع الثقافة، خبير بالأمم والشعوب: أعمالها، وقائعها، مآثرها ومكارمها، بصير بالأخطار والعواقب والنتائج، ويصل بدراسته الحيادية المستقلة وبخبراته وتجاربه إلى أنَّ الأمة التي كانت قد قادت الإنسانية سابقاً إلى شاطئ النجاة، هذه الأمة التي تقدر برسالتها الخالدة، وبقِيَمها الخلقية النورانية، وبمبادئها الفطرية المنطقية الواقعية، وبعقيدتها الصافية

النقيَّة الطاهرة، هذه الأمة هي الجديرة أن تقود الإنسانية جمعاء من جديد، إلى الخير والنجاح والنهضة والتقدم والرفاهية والرخاء والفلاح.

ويركز شيخنا الندوي رحمه الله على هذه النقطة ويقول:

«والعالم العربي بمواهبه وخصائصه وحُسن موقعه الجغرافي وأهميته السياسية يحسن الاضطلاع برسالة الإسلام، ويستطيع أن يتقلَّد زعامة العالم الإسلامي، ويزاحم أوروبة بعد الاستعداد الكامل، وينتصر عليها بإيمانه وقوة رسالته ونصر من الله، ويحوِّل العالم من الشرِّ إلى الخير، ومن النار والدمار إلى الهدوء والسلام»[1].

أشعر بأنني كتبت وأتيت بآراء وقبسات عن هذا الكتاب ربَّما كثرت وثقلت على ذهن القارئ، ولكنني على يقين بأنه يعذرني في عملي هذا، فإنها ليست إلا انطباعات عن كتاب أنشأ ثورة في دنيا العلم والفكر والحضارة والثقافة والتاريخ، ووجَّه أنظار المثقفين والمفكرين والباحثين والدارسين والدعاة والمصلحين إلى أهمية موضوعاته وأفكاره.

وقد مضى على طبعه ونشره أكثر من خمسين عاماً، وهو لا يزال جديداً وطريفاً، يتجدَّد في كل حين وآن وعصر وجيل، والكتاب ليس إلا صرخة مدوية لعودة الأمة، وأمة العرب بخاصة إلى القيادة من جديد، لتجبر الإنسانيةُ خسارتها، وتعود بها إلى المجد والعزَّة والكرامة، فهل آن للأمة أن تعود إلى وعيها؟!.

* * *

---

(١) ماذا خسر العالم، ص٢٩٩ طبعة دار القلم بدمشق.

٢ ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام

إنها السلسلة الذهبية التي وصلت جواهرها ريشة الشيخ الندوي رحمه الله، الرشيقة الشيِّقة، قدَّمتها أولاً باقة جميلة جذابة إلى طلبة كلية الشريعة وأساتذتها وأعيان البلد ومفكريه والمعنيين بتاريخ التجديد والمجددين في الإسلام، بالجامعة السورية (جامعة دمشق) ثم أتمَّها باسم (رجال الفكر والدعوة في الإسلام)[1].

ابتدأ سماحة الشيخ رحمه الله من القرن الأول الهجري وانتهى برجال القرن الرابع عشر الهجري في أربعة أجزاء تشتمل على ألف وخمسمئة صفحة تقريباً، وقد نشرت الجامعة السورية محاضرات الجزء الأول في طبعته الأولى، وتحلَّت بمقدمة قيِّمة بقلم أستاذنا الحبيب الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق إذ ذاك، قال فيها:

«وهذا الكتاب الذي نقدِّمه اليوم لقرَّاء العربية صورة واضحة لأفكار الأستاذ الندوي وميوله الإصلاحية، ولفهمه العميق للتاريخ الإسلامي ولروح الإسلام الصافية المشرقة، وما علق بها ـ في العصور الأخيرة ـ من غبار، وما أصابها من انحراف، وبذلك يسدُّ هذا الكتاب ثغرة في دراسة

---

(١) طلب المؤلف من ابن أخته العالم الكاتب الشيخ محمد واضح رشيد أن يكتب في هذه السلسلة أجزاء أخرى تتناول رجالاً لم يكتب عنهم في الأجزاء الأربعة المطبوعة، وسوف تصدر دار القلم هذه السلسلة كاملة إن شاء الله.

التاريخ الإسلامي، كنا وما نزال نشعر بالحاجة إليها، إذ يتحدث عن تاريخ الإصلاح في حياة المسلمين السياسية والدينية والاجتماعية في فترات من تاريخ الإسلام في الماضي، كما يعرض لنا صوراً واضحة لأبرز زعماء الإصلاح الإسلامي منذ العصر الأموي»[1].

وقال سماحة المؤلف رحمه الله عن هذه المحاضرات التي طبعت في الجزء الأول:

«وإني في هذه المحاضرات لا أدَّعي علماً غزيراً ولا اكتشافاً جديداً، كل ما حرصت عليه هو دراسة هذه الشخصيات من جميع نواحيها وإبرازها، والقول المتَّزن، وأن لا أقول شيئاً إلا عن اعتقاد واقتناع مستنداً إلى حقائق التاريخ وشهاداته، غير مجازف في القول، ولا معتمد على القياس والنزعة الفردية، ولم يكن شأني في ذلك شأن من يحدِّد غاية ثم يخضع التاريخ لها، وما أهون ذلك على مؤلف قدير وكاتب لبق»[2].

وتحدَّث الداعية الإسلامي الكبير والمفكِّر الفقيه العلاَّمة الدكتور يوسف القرضاوي عن أهمِّ الكتب التي ظهرت للشيخ رحمه الله فقال عن رجال الفكر والدعوة في الإسلام: «وهو كتاب يعتبر نسيجَ وَحْده» وقال: «وهو ـ في الأصل ـ محاضرات عن كل شخصية من الشخصيات المجدِّدة التي اختارها الشيخ» وألقاها على طلاب كلية الشريعة في دمشق بدعوة من عميدها الداعية الفقيه الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله.

وقد أعدَّها الشيخ الندوي إعداداً جيداً، وبينت مدى عناية الشيخ بالتاريخ الإسلامي، ومراحله المختلفة، وعميق معرفته بخصائص

---

(١) مقدمة الجزء الأول، ص٣ ـ ٤.

(٢) تقديم الجزء الأول، ص٥.

الرجال المجدِّدين للدين، والمؤثِّرين في الأمة، وأن كلاًّ منهم جاء في أوانه، وسدَّ ثغرة لم يكن ليسدَّها غيره، وقد أتبع الجزء الأول بأجزاء بعد ذلك تحدثت عن عدد من الأعلام، مثل الحافظ ابن تيمية وتلاميذ مدرسته، والإمام السرهندي وخلفائه، وشيخ الإسلام ولي الله الدهلوي[1].

ويحلو لي أن أضمَّ إلى هذه القبسات الوضيئة كلمة جيدة من رسالة السيدة الفاضلة والكاتبة الممتازة مريم جميلة، أرسلتها إلى سماحة الشيخ الندوي بعد تسلُّمها الجزء الأول من سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام، تقول:

«وأما كتابكم فهو كامل ومحتوٍ على الموضوع مع رشاقة القلم وإمتاع الأسلوب، وخاصة بحثكم حول الهجوم التتري على العالم الإسلامي شيِّق وممتع جداً.

فالحقيقة أن تأليفكم هذا مؤثِّر وممتلئ بالحماس، ويشعل العاطفة ويصوِّر التاريخ الإسلامي والأفكار الصحيحة تصويراً دقيقاً ويعرضها عرضاً صادقاً»[2].

ورث شيخنا الندوي رحمه الله من عائلته الكريمة التذوُّق التاريخي، والمَلَكَة المميزة، والقدرة الكتابية الواضحة البيِّنة للسِّيَر والتراجم ووقائع التاريخ، وورث كذلك الأمانة العلمية والتاريخية متجنِّباً المحاباة والجانبية والانحياز، فقد عرض الحوادث والوقائع عرضاً أميناً صادقاً، وبالإضافة إلى ذلك اختص بروح نقدية تحليلية شاملة ميَّزته عن الكتَّاب الآخرين

---

(١) الإمام العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته بتصرف، ص٤١ـ٤٢.
(٢) رسالة السيدة مريم جميلة المؤرخة ١٩ أكتوبر ١٩٧٤م.

الذين أرَّخوا للرجال والشخصيات وأعمالهم وخدماتهم تاريخاً عاماً، ولم يتعرضوا للأبعاد والملابسات والبصمات التي تركوها على المجتمع الذي عاشوا فيه.

وأمَّا سماحة الشيخ فقد ألقى نظرة جامعة شاملة بآراء توجيهية ترشيدية بحيث تجلَّت روح زكية ومعانٍ سامية تحرك في النفوس رغبة الإصلاح والتجديد على الأساس الإسلامي الصحيح، وقد حالفه النجاح والتوفيق بهذا الصدد خاصة.

والكتاب بأجزائه الأربعة التي صدرت يحتوي على جهود المصلحين والمجددين من لدن سيدنا عمر بن عبد العزيز إلى مولانا جلال الدين الرومي في الجزء الأول، والجزء الثاني يخصُّ الإمام ابن تيمية وتلاميذه، والجزء الثالث يتحدث عن الإمام أحمد السرهندي وأصحابه في الهند، والجزء الرابع يشتمل على مجهودات الإمام ولي الله الدهلوي وأبناءه في الهند.

* * *

٣ ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية

كان القرن الثامن عشر الميلادي والتاسع عشر مهمَّان وخطيران للدول الغربية التي قطعت شأواً كبيراً في النهضة الصناعية والحضارة المادية والمدنية الحديثة، وتسلَّحت عسكرياً تسلحاً حديثاً، وتقدمت في التقنية والاقتصاد والعلوم الحديثة، ثم توجَّهت إلى الشرق والديار الإسلامية بخاصة، بل هاجمت تلك البلاد هجوماً عنيفاً شرساً في كل جانب من جوانب الحياة، ولم يكن هذا التوجُّه لنقل الرقي الحضاري والصناعي إلى هذه البلاد، بل كان القصد منه السيطرة والهيمنة على جميع الموارد والمصادر والمناهل والملك، وكان استعماراً تامّاً لتلك البلاد، فتجمَّع الغرب كله، وبدأ يكيل التهم جزافاً، ويسفِّه الأحلام والعلماء ويكذِّب المبادئ والحقائق، وكانت الافتراءات على الدين الإسلامي كثيرة إلى حدٍّ أنه وُضع في (قفص الاتهام).

وكان يواكب الجيش والعلم ووسائل الإعلام المبشِّرون المسيحيون المثقفون بثقافات الأديان والمذاهب وتاريخها ولغتها، فيلقون أسئلة لاذعة ويعرضون خلافات ونزاعات فكرية وفقهية وكلامية، ويبترون الحقائق بتراً، ويقتطعون العبارات والكلمات، ويوقعون عامة المسلمين الذين لا يعرفون من العقيدة والمبادئ الإسلامية إلا قليلاً، فصار الناس في بلاد الإسلام في (موقف الاعتذار)، وكان للأمرين رجال وأناس، ولكن كلا

الموقفين لم يثبتا ولم يجدا جذوراً قوية نامية، فصارا هباءً منثوراً، ومرًّا مروراً سريعاً، بَيْد أنه خلَّف وراءه صراعاً فكرياً شديداً وعنيفاً في العالم كله، وهذا ما يتحدث عنه هذا الكتاب (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية). يقول مؤلفه الشيخ الندوي عنه:

«وكان كتاب الساعة، لأنه يبحث عن قضية مصيرية للأقطار الإسلامية»، ويعيِّن مكانتها في خارطة الإسلام المعنوية والمبدئية في جانب، وفي خارطة العالم الحضارية والاجتماعية في جانب آخر، ويحدِّد قيمتها الحقيقية من وجهة نظر الإسلام ورسالته وأهدافه، وكان من أهم كتب المؤلف في نظر كثير من أصدقائه وقراء كتبه، ويعتقد بعض القراء أنه يكوِّن الحلقة الثانية من كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)[1].

استعرض المؤلف رحمه الله الفكرة الغربية بتفاصيلها وأبعادها، ودرسها دراسة عميقة واعية، وأدرك أخطارها المحدقة بالإسلام والمسلمين في ديارهم كلها، لذلك خصَّ كل بلد إسلامي بدراسة هذه الظاهرة فيه، وأفكارها، وحُماتها وكتاباتهم ونشاطاتهم، ثم لفت الأنظار إلى ما تخفي في جنباتها من التدمير والتخريب والأخطار التي ترصد العالم الإسلامي بسببها، ونبَّه إلى الوسائل الوقائية والطرق السويَّة السليمة لتجنب تلك الأخطار، وأشاد بما قام به المفكرون الإسلاميون العاملون بهذا الصدد، وكيف تصدَّوا لهذه الفكرة الغربية التي لا تريد إلا أن تستولي على ديار الإسلام وتنمِّي فيها القيم الغربية والأفكار الغربية، وتغيِّر مفاهيمها الدينية وتقاليدها القومية وقوانينها الإسلامية بالأوضاع الغربية، وعلى حدِّ قول الشيخ الندوي رحمه الله فإنها تريد: أن «تصهر هذه البلاد بتؤدة وأناة

---

(١) مقدمة الطبعة الرابعة، ص٥.

ولكن بوعي وإلحاح في بوتقة الحضارة الغربية».

لأجل هذا بدأ شيخنا الندوي رحمه الله يكتب مقالات عن هذه المشكلة في أوائل ١٣٨٢هـ، ونشرها في كتاب عام ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م باسم (موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية)، ورحَّبت به الأوساط العلمية والدينية في البلاد العربية، ولما زار الشيخ رحمه الله أوروبة وشاهد هذه الحضارة في عقر دارها، واطَّلع على بعض المصادر الحديثة أضاف إلى الكتاب أبواباً ومواضيع جديدة، ونشر الكتاب بطبعة أكبر من سابقتها، وسمَّاه (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية).

تحدث فضيلة الدكتور العلامة يوسف القرضاوي حفظه الله عن الكتاب فقال: «وهو يبيِّن كيف دخلت الفكرة الغربية ديار المسلمين»، وصارعت الفكرة الإسلامية، التي هي الأصل وصاحبة الدار، وكيف كادت تنفرد بالتأثير والتوجيه فترة من الزمن، ثم قيَّض الله للفكرة الإسلامية من يجدِّدها ويدعو إليها ويذود عنها، لتتبوأ مكانتها»[1].

وأما الكتاب فهو يشتمل على ثلاثة مواقف من الحضارة الغربية:

١ ـ الموقف السلبي، ومعناه رفض هذه الحضارة رفضاً باتاً، وذلك لا ينتج عنه إلا تخلُّف العالم الإسلامي عن ركب الحياة، وهو غير مطلوب، بل هو جناية على الدين الإسلامي وأهله، وقد استعرض المؤلف أوضاع العالم الإسلامي كله وشخَّص الأمراض، وقدَّم لها علاجاً ناجعاً ودواء شافياً، للتخطيط وإصلاح هذه الأوضاع في ضوء من الكتاب والسُّنَّة.

٢ ـ الموقف الثاني: حركة التغريب (التقدُّمية) في العالم

---

(١) قيمة الأمة الإسلامية، ص٤٢.

الإسلامي، أنصارها ومنتقدوها، قام سماحة الشيخ رحمه الله بإلقاء نظرة عميقة فاحصة شاملة بعلمه الوافر الجم، وتجاربه الواسعة الضخمة، على هذه الحركة الهدَّامة أو السيل العارم الجارف، وكانت نظرته تتَّسم بكل اتزان وتوازن وإنصاف، وقدَّم تحليلات واقعية رائعة اتصفت بكل لطف وحكمة ولباقة، وبدون تجريح وإساءة لا إلى الأشخاص ولا إلى الحركات والجمعيات أيّاً كانت، وأين كانت، وأخذ بيد القارئ إلى أسباب (التجدُّد) و(التغرُّب) وعلاجها، وأنار طريقه وهو يعبر تلك الساحة المظلمة.

٣ ـ الموقف الثالث: مركز الأمة الإسلامية ورسالتها، يبيِّن سماحة الشيخ رحمه الله في هذا الموقف بكل قوة وصراحة ووضوح النقاط الحسَّاسة في العالم الإسلامي، ويثير فيه الغيرة الدينية والحماسة والروح البطولية، ليُحيي فيه المؤمن القوي العليم الصالح المصلح، ويشير إلى أنه في مثل هذا الموقف الشائك الحرج المتأزم تمسُّ الحاجة إلى ذلك العبقري العصامي الذي يواجه الحضارة الغربية بشجاعة وإيمان وذكاء، ويشق له طريقاً بين مناهجها ومذاهبها، وبين فضائلها ورذائلها، طريقاً يترفَّع عن التقليد والمحاكاة وعن التطرُّف والمغالاة، غير خاضع فيها للأشكال والمظاهر، والمفاهيم السطحية، ويتمسك بالحقائق وأسباب القوة، وباللباب دون القشور[(١)].

ويصل المؤلف الجليل رحمه الله في خاتمة البحث إلى دعوة مجلجلة لاختيار الطريق السوي في ضوء من الآية الكريمة: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ

---

(١) الصراع، ص٢١٦.

﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وقد حالفه التوفيق بهذا المنهج الدراسي القيِّم والفكري المتَّزن السليم، إلى تقديم كتاب فريد مفيد نافع وهو بلا ريب كتاب الساعة، وحاجة العصر، ومطلوب الأمة، ومبتغى الإنسانية.

* * *

٤ ـ الأركان الأربعة: في ضوء الكتاب والسُّنّة
الصلاة ـ الزكاة ـ الصوم ـ الحج
مقارنة مع الديانات الأخرى

هذا الكتاب من أعظم مؤلفات شيخنا الندوي رحمه الله وأهمها، ويمتاز في أنه يتجلَّى فيه البحث الفقهي الدراسي العميق بثوب جديد إلى جانب الروحانية الربانية الصافية الزكية الطاهرة، بالإضافة إلى مقارنة تحليلية شاملة حيادية مع الديانات الأخرى، وكان الكتاب تحفة ثمينة، وزيادة ثرية غنية للمكتبة الإسلامية الزاخرة بالكتب الفقهية، وقد أشارت إليه الكاتبة الأمريكية المهتدية السيدة مريم جميلة في رسالة أرسلتها إلى الشيخ الندوي بعد تسلُّمها الكتاب فقالت:

«تسلَّمت بالبريد المسجَّل كتابكم الجديد الممتاز (الأركان الأربعة (الطبعة الإنكليزية) وهو أجود وأكمل كتاب ـ فيما أعتقد ـ بين جميع الكتب التي ظهرت في هذا الموضوع إلى الآن باللغة الإنكليزية.

واسمحوا لي أن أقول بكل صراحة: إن معظم الكتب التي ألفها الكتَّاب المسلمون في هذا الموضوع لم يعجبني، إذ إن أسلوب بعض الكتَّاب ركيك للغاية لا يعدو الخط القانوني والرسمي، كما أن أكثر علماء المسلمين يتعرضون للموضوع بلهجة سلبية جارحة، ويحاولون أن يضطروا المسلمين الغافلين عن هذه العبادات، إلى تأديتها بتخويفهم من عذاب الآخرة الأليم، وتوجيه إنذارات تملأ قلوبهم وحشة وخوفاً فيقبلوا عليها خائفين لا مقتنعين، ومن الذي ينكر عذاب الآخرة؟ إلا أن هذا

الأسلوب السلبي يسيء الظنَّ بالإسلام لدى العقول الجديدة ويمهِّد لها الطريق إلى الإلحاد والمادية ظنّاً منها أن الإسلام «تعبير عن القيود الظالمة والإجبارات القاهرة. . . إلا أنكم موفقون كل التوفيق في نقل أفكار الغزالي والإمام الدهلوي إلى الجيل المعاصر بلغة العصر وأسلوبه، وزدتم عليها المقارنة بين عبادات الديانات كالهندوسية، والبوذية، واليهودية، والنصرانية»[1].

والكتاب بدون شكٍّ أُلِّف بأسلوب علمي أدبي رفيع رصين، وعصري شيِّق، فكان نقطة اتصال بين الجيل الجديد المعاصر والجيل القديم الغابر، هذه ميزة، وللكتاب ميزة أخرى وهي أنه ييسِّر ويؤنس ويقرِّب بأناة وتؤدة وهدوء، ويوفق بين الآراء المتضاربة المضطربة بحكمة ولطف ولباقة بالتركيز على مقاصد العبادات وأسرارها وأهدافها وغاياتها وحقائقها في ضوء الكتاب والسنَّة، مستفيداً من مؤلفات المسلمين القدامى القيمة الغالية، وكان الموضوع يشغل بال سماحة الشيخ رحمه الله ويهمه كثيراً، وهو يشير إلى ما دعاه لتأليف الكتاب فيقول:

«وكان مما حفز المؤلف على هذا التأليف ـ رغم أمراضه التي يعانيها، والأشغال، والمسؤوليات التي ترهقه ـ ما كان يشعر به من مدَّة طويلة من اضطراب الآراء والكتابات في تفسير هذه الأركان، ومقاصدها وغاياتها، وفوائدها ومصالحها في هذا العصر، وإخضاعها في جراءة كبيرة، وتوسُّع وسخاء للفلسفات العصرية، والمذاهب الاقتصادية والسياسية، ومصطلحاتها وتعبيراتها المحدودة، حتى كادت هذه الأركان في عقول من آمن بهذا التفسير وخضع لهذا الغرض، تفقد حقيقتها

---

(١) الأستاذ أبو الحسن الندوي: كاتباً ومفكراً، للأستاذ نذر الحفيظ الندوي الأزهري، ص٢٩.

وقـوتها، وتضيع مقاصدهـا التي شـرعت لأجلها، وكاد معنى الإيمان والاحتساب يضيع من بين هذه التعبيرات المادية والتفسيرات العصرية، وكاد التفكيـر المادي يطغى على روح العبادة والإخلاص، فكان ذلك ـ بحيث يشعر أصحاب هذه الفكرة أو لا يشعرون ـ خطراً كبيراً على الأمة، وطليعة تحريف كبير في فهم المعاني الدينية والمقاصد الشرعية»[1].

أذكر أنني ذهبت من دهلي إلى قرية شيخنا رحمه الله (تكيه كلان) في إجازة قصيرة، وكانت قد أجريت له عملية جراحية للعين، فلم يكن يقدر على القراءة، وكان قد بدأ تأليف هذا الكتاب، فكلَّفني بأن أقرأ له قسم العبادات من كتاب (حجَّة الله البالغة) للإمام ولي الله الدهلوي يومياً مدة إقامتي في القرية، بدأت أقرأ له وهو يستمع، وإذا مررت بقطعة تهمُّه للكتـاب يوقفني، ويقول: ضع إشـارة من سـطر كذا إلى سـطر كذا، ثم يجعلني أستمر في القراءة، وهكذا أتممت قراءة قسم العبادات، ورجعت إلى مقرٍّ عملي.

وكانت بداية الكتاب بمقالات عن الحج بطلب من رئيس تحرير مجلة (المسلمون) التي كان يصدرها الدكتور سعيد رمضان رحمه الله من (جنيف)، فنشـرت ثلاث مقالات عن الحج، وأذاعتهـا محطـة الإذاعـة السعودية أحياناً، وكتب مقالين عن رسالة الصيام بمناسبة حلول رمضان نشرتهما (المسلمون) وأُعجب بها القرَّاء، ونظر فيها سماحة الشيخ فوجدها أسـلوباً جديداً ونظرة شـرعية ربانية، فأراد أن يوسِّعها ويضم إليها ركـن الصلاة والزكـاة، وكذلك تكـوَّن الكتاب وسدَّ فراغاً كبيراً، وتلقَّاه النـاس بالقبول، وترجم إلى اللغات: الإنكليزية والأردية والفارسية والتركية وفي بعض اللغات المحلية والإقليمية.

---

(١) بين يدي الكتاب لسماحة الشيخ رحمه الله، ص٨ (طبعة دار القلم بدمشق).

والكتـاب رائد فريـد في بيان أسـرار الشـريعة ومقاصـد الأركـان الأربعة، يحتوي على المقارنة العلمية النزيهة المخلصة مع الديانات العالمية الكبرى بأسلوب أدبي جميل شيِّق.

* * *

٥ ـ السيرة النبوية

كان كتاب (السيرة النبوية) أحب الكتب وآثرها لدى سماحة الشيخ الندوي، ألَّفه بكل حب وأدب وشوق، وعاطفة وإيمان وإخلاص، وكان العقل والقلب متجاوران، يسيران معاً ولا يفترقان، وكان قد فتح عينيه في بيئة تنعم بحبِّ الرسول ﷺ وصلة العشق والهيمان، والمحبة لذات النبي الكريم عليه الصلاة والتسليم، والتأسِّي بسيرته الطيبة وشمائله العطرة، والتقدير والاحترام والطاعة والاتباع الصادق الوفي لسنَّته السنيَّة وشريعته الحقَّـة، كان يرى أهل أسـرته وأفراد عائلته تلهج ألسـنتهم بذكر الذات النبوية العظيمة، وتردُّد الصلوات والتسليمات عليه دائماً في ذلك البيت، وتقرأ كتب السيرة وتذكر أخلاق النبي ﷺ ومآثره ومكارمه ومننه وأفضاله وبرَّه وإحسانه على البشرية صباح مساء على مسامعه، فنشأ وتربَّى في هذا الجوِّ النوراني النبيل المفعم بالمسك والطيب وريا القرنفل، وقد أشار إلى ذلك بقوله:

«فقد كانت السيرة النبوية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ المدرسة الأولى التي تعلَّم فيها مؤلف هذا الكتاب، وقد دخلها في سنٍّ مبكِّرة، لا يدخل فيها الأطفال في عامة الأحوال، والفضل في ذلك يرجع إلى الجوِّ الذي يسود بيته وأسرته، فقد كانت السيرة تكوِّن عنصراً أساسياً في الثقافة التي يتلقَّاها أبناء الأسرة وأطفال البيت، وإلى المكتبة الصغيرة البسيطة المؤلفة من منظوم ومنثور، التي كانت تنتقل من يد إلى يد، ثم إلى تربية أخيـه الأكبر الدكتور السـيد (عبد العلي الحسني)، وتوجيهه الحكيم، فقرأ في صباه أفضل ما كتب في السيرة النبوية في (أردو) لغة مسلمي الهند،

وهي أغنى لغات العالم الإسلامي بعد اللغة العربيـة في موضوع السـيرة، وهي تحتوي على أقوى وأجمل ما كتب فيها في العصر الأخير»[١].

وقال أيضاً:

«ومن المقرَّر أنَّ السيرة أقوى العناصر التربوية وأكثرها تأثيراً في النفس والعقل بعد القرآن»[٢].

لذا كـان شيخنا رحمه الله يتطلَّع لتأليف كتـاب في السـيرة للجيل الجديد المعاصر بلغة جديدة واضحة بيِّنة، وبأسلوب علمي مؤثِّر شـيِّق، ولكنه كان يتهيَّب هذا الأمر لجلالة الموضوع وعظمة الموقف، ولكن إلحاح الإخوة والأصدقاء، والشعور بالحاجة إلى مثل هذا الكتاب جعله يعكف على تأليفه، وينقطع إليه ما بين شوال ١٣٩٥هـ وشوال ١٣٩٦هـ (أكتوبر ١٩٧٥ ـ أكتوبر ١٩٧٦م) وأتمَّه على خير ما يرام، وإليكم قطعة من مقدِّمته الأولى بقلمه الجميل:

«كان المؤلف يشعر بمسيس الحاجة إلى كتاب كتب في أسلوب عصري علمي، أستفيد فيه من خير ما كتب في القديم والحديث، مؤسساً على مصادر السـيرة الأولى الأصيلة، مطابقاً لما جـاء في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، لم يكتب بالأسلوب الموسوعي الحاشد للمعلومات في غير نقد وتمحيص، الأسلوب الذي اعتاده أكثر المؤلِّفين المتوسطين والمتـأخرين وقليل من المؤلفين المتقدمين، والذي كان مثـار كثير من التساؤلات التي برَّأ الله السيرة الكريمة منها، وأغنى المسلمين عنها، قد نالته يد التنقيح والتحقيق من غير تقليد للاتجاهات العصرية، وخضوع لكتابات المستشرقين وأقوال المشككين، متمشِّياً مع المقررات الدينية

---

(١) مقدمة الطبعة الأولى، ص٩.

(٢) المصدر السابق، ص١٠.

التي تُفهم في ضوئها الكتب السماوية وسير الأنبياء، والمعجزات والأخبار الغيبية، قائماً على مبدأ أنه سيرة نبيٍّ من الأنبياء، مبعوث من الله، مؤيد منه، لا سيرة عظيم من العظماء، أو زعيم من الزعماء، ليسوغ أن يقدم إلى كل مثقف منصف من المسلمين وغير المسلمين من غير تحفُّظ أو استثناء، أو حاجة إلى تأويل، يعتمد فيه المؤلف على الحوادث والوقائع، ومادة السيرة، ويدعها تنطق بلسانها، وتشقُّ الطريق بنفسها إلى القلوب والعقول، أكثر مما يعتمد على فلسفته للحوادث وتحليله للأخبار، ومقدماته الطويلة العريضة، فالسيرة النبوية غنية بجمالها وروعتها وسحرها على النفوس والعقول، ووقعها منها موقع القبول، من شفاعة شافع، وتدليل حكيم، وبراعة أديب، وجلُّ ما يحتاج إليه المؤلف، هو جمال العرض، وحسن الترتيب، وجودة التلخيص»[1].

والكتاب بمواضيعه الجامعة الشاملة وبمحتوياته الوافرة الكاملة، وبجمعه الجانبين العلمي والتربوي البلاغي، وبأسلوبه الآسر للقلوب والنفوس، وببيانه الساحر الجميل الجذَّاب الخلَّاب، وبمعلوماته المقارنة والكشوف الحديثة، وبخرائطه ومعالمه الجغرافية في السيرة، وخصائصه المميزة، جديرٌ بأن ينال حظوة وقبولاً، ويتبوأ مكانة مرموقة في الأوساط العلمية والثقافية والدينية والدعوية والحضارية في العالم.

سألت سماحة الشيخ رحمه الله قبل وفاته بأربع وعشرين يوماً وكان إذ ذاك في حرم ندوة العلماء (لكهنؤ) الهند، أي مؤلفاتكم أحبُّ إلى جنابكم؟ فقال: السيرة النبوية، والنبوة والأنبياء، والطريق إلى المدينة، والأركان الأربعة، وماذا خسر العالم..

* * *

(١) المقدمة، ص١٠-١١.

٦ ـ النبوة والأنبياء في ضوء القرآن

كتاب (النبوة والأنبياء) مجموع محاضرات ثمان ألقاها الشيخ الندوي في مدرج الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بدعوة من نائب رئيسها فضيلة الشيخ (عبد العزيز بن باز) رحمه الله، في شهر ذي القعدة ١٣٨٢هـ ـ آذار (مارس) ١٩٦٣م، وقد ألقيت محاضرتان في كل أسبوع بعد صلاة العشاء، وكان يتقدَّم الحضور فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، ويعلِّق عليها بعد الانتهاء من إلقائها، ويرحب فيها بالمحاضر (الأستاذ الزائر)، ويثني على المحاضرات بكلمات علمية عالية. وكان يحضرها طلبة الجامعة وأساتذتها وأهل العلم وأعيان المدينة المنورة.

كان الموضوع مهمّاً وخطيراً، وشيّقاً وحبيباً إلى قلب الشيخ الندوي رحمه الله وإلى قلوب المستمعين، لأنه عرض في مدينة النبي الكريم ﷺ وعلى مقربة من الحرم النبوي الجليل على صاحبه ألف ألف صلاة وتسليم، فكان المجلس تغشاه سحابة من نور، وتظله روح الرسالة المحمدية العظيمة، وتضيء فيه أنوار الدعوة النبوية المباركة، كانت تلك المحاضرات تقرُّ العيون، وتسرُّ القلوب، وتثلج الأفئدة، وكان المستمعون يذهبون فرحين فخورين، ويرجعون مبتهجين مستبشرين، وقد أشار سماحة الشيخ رحمه الله إلى هذه المحاضرات فقال:

«وجِّهت إليَّ في العام القادم عام ١٣٨٢هـ الموافق ١٩٦٣م دعوة من الجامعة الإسلامية لإلقاء محاضرات على الطلاب، واخترت لمكان

المدينة المنورة عنوان: (النبوة والأنبياء في ضوء القرآن) وتمثَّلتُ في مستهل المحاضرة الأولى ببيتي الشاعر العربي مستدلاً على سبب اختيار هذا الموضوع:

ولما نزلنا منزلاً طَلَّه الندى أنيقاً وبستاناً من النور حاليا
أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنه مُنًى فتمنينا فكنتِ الأمانيا

وأعددت المحاضرات، التي صدرت فيما بعد بهذا العنوان نفسه في كتاب مستقل.

غادرنا إلى الحجاز في ١١/ مارس ١٩٦٣م، وكان يرافقني ابن أختي العزيز (محمد الرابع الحسني) في هذا السفر، وبدأت سلسلة المحاضرات بتاريخ ٣/ ذي القعدة ١٣٨٢هـ الموافق ٣٠/ مارس ١٩٦٣م، وتمَّت ثماني محاضرات، وكانت تلقى هذه المحاضرات في كل يوم إثنين وخميس، وكان يحضرها نائب رئيس الجامعة المربِّي الكبير والداعية الموفَّق سماحة الشيخ (عبد العزيز بن باز)، وكان يعلِّق على المحاضرة بنفسه»[١].

وقد أضيفت في نهاية الكتاب عند الطبع مقالتان قيِّمتان بمناسبة الموضوع، بنفس الأسلوب الأدبي الممتع عن فضل عقيدة ختم النبوة على الإنسانية، والصحف السماوية في ميزان العلم والتاريخ.

وقد تثار أسئلة كثيرة حول سمات النبوة وخصائص دعوة الأنبياء وشخصيتهم، وأساليب دعوة الأنبياء وفهم رسالتهم فهماً صحيحاً، وفهم القرآن الكريم وكلماته ومصطلحاته فهماً صحيحاً، وهل ننظر إلى هذه الأسئلة ونجيب عليها في ضوء المصطلحات الحديثة، ونقيس مهمَّة النبوة ومركز الأنبياء بالمقاييس العصرية؟.

---

(١) في مسيرة الحياة: ١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

أجاب سماحة الشيخ على هذه الأسئلة في محاضراته واستعرضها في ضوء القرآن، وكانت هذه الأمور تختلج في ذهنه قبل أن يتلقَّى هذه الدعوة الكريمة لإلقاء المحاضرات، فاختار بالمناسبة هذا الموضوع وهو لم يكن مُرتجلاً وطارئاً فقد قال:

«هذا الموضوع لم يكن موضوعاً مرتجلاً ولا من سوانح الآراء، بل كان يجول في خاطر المؤلف من زمن طويل بسبب تجاربه الطويلة في مجال الدعوة، واطِّلاعه الواسع على عقلية الطبقة المثقَّفة، فرأى معالجته والحديث عنه من أهمِّ البحوث والدراسات التي تشتدُّ حاجة الطبقة المثقَّفة إليها، لأنها أقوى سبب في انحراف الطبقات المثقفة والسائدة عن الجادة وتخلِّيها عن روح الإسلام الصحيحة، وخضوعها الزائد للمفاهيم والقيم المادية المنافية لروح الديانات السماوية، وتمسُّكها بالأساليب الصناعية والمناهج الفكرية الغربية، حتى في تفسير الإسلام، وفي مجال الدعوة والإصلاح العام»[1].

إنَّ هذا الكتاب يتميَّز بجمال أسلوبه، ووضوح بيانه، ورشاقة لغته، وقوة تأثيره، وإشراق روحه، وعمق أفكاره وسموّ معانيه، فتفوَّق وبلغ قمَّة ما سطَّره قلم المؤلف البليغ، وكتب له القبول والخلود.

والكتاب بمقالاته العشر يحتوي على مواضيع تهمُّ الأمة، ويقتضيها العصر، وقد لخَّصها الأستاذ الفاضل الشيخ (نذر الحفيظ الندوي الأزهري) كالتالي:

١ ـ تبيِّن فضل الأنبياء ومنَّتهم على الإنسانية.

---

(١) مقدمة الكتاب.

٢ ـ تعيد الثقة والإيمان بالنبوة المحمَّدية.

٣ ـ تعين على حلِّ المعضلات والمشاكل الراهنة.

٤ ـ وهذه المواضيع التي طرقها المؤلف محاولة جادة ومخلصة لإحياء الفكر الإسلامي الأصيل[1].

والكتاب بتميُّز موضوعه، وإشعاعه، وقيمته ومكانته، وروعة عبارته وجمال أدبه جدير بأن لا يخلو منه بيت مسلم، ولا مكتبة بحث وعلم.

* * *

(١) الأستاذ أبو الحسن الندوي: كاتباً ومفكراً، ص٤٢.

٧ ـ الطريق إلى المدينة

كانت لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الندوي صلة عاطفية جيَّاشة وحبٌّ وحنـان، وشوق وحرقة، وانجذاب وتعلُّق شديد بمدينة الرسول ﷺ، وكان له شوق أسمى وعاطفة أقوى بشخصية النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم.

وقد شاهدنا منه كثيراً حين دخوله المسجد النبوي الشريف ووقوفه أمام الحجرة الشريفة آيات الحبِّ الجيَّاش والعاطفة القوية وروح الوفاء والفداء المشرقة. وبعين باكية، وقلب خاشع، ولسان ذاكر، يلهج بالصلاة والسلام، والشكر والامتنان بتبليغ الرسالة وتأدية الأمانة ونصح الأمة، ثم يميل إلى صاحبيه: سيدنا أبي بكر الصدِّيق وسيدنا عمر الفاروق رضي الله عنهما، داعياً لهم بأجزل الثواب وأوفر الجزاء من الله عزَّ وجل.

وكان قد نشأ وترعرع في بيئة كريمة، في أحضان الأم الرؤوم التي أرضعته لبان الحبِّ للرسول الأعظم ﷺ، والتشبُّع بروح دعوته، والتضلُّع بحمل رسـالته عليه أفضل صلاة وسـلام، وعاش في كنف أخيه الأكبر، الرؤوف الأكرم فضيلة الدكتور عبد العلي الحسني رحمه الله، فربَّاه على حبِّ رسول الله ﷺ واتباع سنَّته، والقيام بدعوته والجهاد في سبيل رسالته، وهيَّأ له كتباً صغيرة سهلة ميسَّرة عن سيرة الرسول الأعظم ﷺ.

لقد سرى فيه حبُّ رسول الله سريان الدم في العروق، لقد سرى فيه في الأعصاب والأحشاء والعقل والقلب، وهذا الحب هو الذي وقَّد جمرة

الإيمان المتدفِّق، والعقيدة القويمة الراسخة في شخصه وقلبه.

ولما شبَّ وتوجَّه بإخلاص وحماس إلى ميدان الدعوة وتجوَّل في المدن والقرى والأرياف في بلاده وبلاد العالم والتقى بالمسلمين وقرأ مؤلفاتهم وجرائدهم، أحزنه ضعف هذا الجانب عند المسلمين، فبدأ يركز عليه في محاضراته وخطبه ومواعظه وأحاديث المجالس وكلماته التي أذيعت من الإذاعات العربية والإسلامية. وإليكم كلمة تحدَّث بها عن الأسباب والعوامل التي دعته إلى جمع تلك الخطب والأحاديث في كتاب (الطريق إلى المدينة):

«وهال المؤلف وأفزعه ضعف العاطفة في هذه البلاد وضعف الصلة الروحية والعاطفة بالنبي ﷺ، وهو خطر كبير، يمهِّد لكلِّ ثورة، ولكلِّ اضطراب، ولكلِّ ضعف، ولكلِّ نوع من أنواع الفوضى، وقد تمالأت عوامل كثيرة ودعوات عديدة على تجفيف منابع هذا الحب وإضعافه على الأقل، وأصيبت النفوس بجفاف في الشعور وفي التفكير، وسرى ذلك في الأدب والشعر، وتعدَّى إلى الدين ومظاهره، وقد أراد المؤلف أن يكون جندياً صغيراً في مهاجمة هذا التيَّار، وفي إثارة هذا الحب الدفين والعاطفة ـ التي اعتقد أنها كامنة كشرارة في الرماد في قلب كل مسلم ـ وتغذيتها وتنميتها، فجمع لهذا الغرض ما كتب من مقالات وما ألقى من محاضرات وأحاديث في خلال هذه السنوات»[1].

طبع الكتاب أول مرة في المدينة المنوَّرة، فكان له تأثير كبير

---

(١) مقدمة الكتاب، ص٦ طباعة دار القلم بدمشق، وكانت لسماحة الشيخ مثل هذه الكلمة عن تلك العواطف والانطباعات في مؤلفاته عن السيرة النبوية ما بين صغير وكبير، وكلمة مؤثرة رائعة في كتابه ماذا خسر العالم: محمد رسول الله روح العالم العربي.

وحظوة وقبول من قبل القرّاء عامة، وتأثروا بتلك الروح والعاطفة الجيّاشة التي أثارت الحبَّ الدفين والوفاء والحنان والعاطفة في قلوب الأدباء والكتّاب العرب، وقد عبَّر عن هذا التأثر الوفير والعاطفة النبيلة الأستاذ المفكر وأديب العربية الكبير علي الطنطاوي رحمه الله فقال:

«ياأخي أبا الحسن لمّا قرأت كتابك (الطريق إلى المدينة) أحسست بالشوق يعود فيعتلج بنفسي، فعلمت أن قلبي ما خلا من جوهر الحب، ولكن هموم العيش وطول الأُلفة قد غطّيا جوهره بالغبار، فأزاح كتابك عن جوهره الغبار، وكدت أفقد ثقتي بالأدب حين لم أعد أجد عند الأدباء هذه النغمة العلوية التي غنى بها الشعراء من لدن الشريف الرضي إلى البُرَعي، فلمّا قرأت كتابك وجدتها، وجدتها في نثرٍ هو الشعر، إلا أنه بغير نظام.

فيا أبا الحسن لك الشكر على أن رددتَ إليَّ ثقتي بنفسي، وثقتي بأدب لغتي»[1].

إنه كتاب صغير عدد صفحاته (١٢٠) في طبعة دار القلم بدمشق، ولكنه عظيم وضخم في الروعة والجمال، وإثارة الحب والشعور والعاطفة والوجدان، وثريٌّ في المواد والعطاء والنوال، تلقّاه الناس بالقبول، وأذيع عدَّة مرّات من محطة الإذاعة السعودية، ومن محطة الإذاعة الهندية بمدينة لكهنؤ بشكل تمثيلي رائع وفاز بالجائزة، جدير بأن تتحلّى به كلُّ مكتبة، ويقرأه كلُّ مسلم وكلُّ إنسان، والشباب منهم خاصة.

* * *

---

(١) انظر صفحة ١٢ من هذا الكتاب، طبعة دار القلم. هذا وقد صدر للأستاذ الطنطاوي كتاب جميل رائع في هذا المجال هو: (من نفحات الحرم).

٨ ـ العقيدة والعبادة والسلوك

هذا الكتاب الذي أنا بصدد التعريف به للقرّاء الأفاضل والمتعطّشين إلى قراءة مؤلفات فضيلة شيخنا أبي الحسن الندوي رحمه الله هو أصلاً عصارة تجارب وممارسات، وملخَّص دراسات واسعة عميقة لما دبَّجته أقلام السلف الصالح رحمهم الله تعالى، فقد كانوا قد قدَّموا نماذج حسنة طبقاً لعصورهم وظروفها وعقلياتها وطبائعها، فكانت لها فوائد كثيرة ونتائج طيبة.

وكان الشيخ الندوي رحمه الله ينهج منهجهم ويخطو خطوتهم بالتمسُّك والعضِّ بالنواجذ على العقيدة الصحيحة السليمة، ويلتزم بالعبادة والسلوك التزاماً يذكِّر بالصالحين والعلماء الأولين، فكانت الأنظار ترتفع إلى قلمه السيَّال الذي قدَّم إلى الأمة والشباب تحفاً نادرة ثمينة بكتاباته المؤثِّرة التي تنوِّر الطريق وتهدي السبل، بأن يؤلف كتاباً مختصراً جامعاً شاملاً بهذا الموضوع، في لغة سهلة وأسلوب عصري حديث، وقد أشار رحمه الله إلى ذلك فقال:

«وقد كان بعض الإخوان المخلصين يقترحون عليَّ من زمان وضع كتاب في هذا الموضوع ينتفع به رجال هذا الجيل، ويتخذونه دستوراً ودليلاً لحياتهم، كما انتفع رجال الأجيال القديمة والعصور الماضية بما وُضع لهم في عصرهم، وكنت أستصغر نفسي وبضاعتي لتحقيق هذا الطلب، وأتهيَّب إدلاء دلوي في هذا الموضوع إذا نظرت إلى قائمة المؤلفين فيه في القديم،

وجلالة شأنهم وعلوّ مكانتهم في العلم والإخلاص، وزيادة على ذلك، كانت أعمالي الكتابية والمخططات التأليفية التي كنت وضعتها ورأيتها، وأراها لزاماً عليَّ، كانت تعوقني عن التفكير الجدِّي في هذا الموضوع، فضلاً عن اقتحامه والخوض فيه، حتى أدتني إلى ذلك دراستي الشخصية وتجاربي الخاصة، واطِّلاعي المباشر على ما يعانيه المخلصون الطالبون للهدايـة والنصيحة، القابلون للحقِّ متى وجد وأينما وجد، بوجود هذا الفراغ في المكتبة الإسلامية العصرية، وعجز الكتب الكبيرة المطوَّلة عن ملأ هذا الفراغ وسـدِّ هذه الثغرة، فشـرح الله صدري بالقيـام بهذا العمل بحسـب مؤهلاتي وبضاعتي في العلم، ورأيت أنَّ التأخيـر فيه إخـلال بالواجب وتفريط في أداء فريضة، ولعل الله يحاسبني عليها.

فتوكَّلت على الله واستخرته، ودعوته للتوفيق والتيسير، ووفَّق الله لتأليف هذا الكتاب، وقد صببتُ فيه عصارة دراساتي، وخلاصة تجاربي، في مجال الدعوة والتربية ومعرفتي بطبقات الأمة المختلفة معرفة علمية، فاستفدت من كل ذلك في تأليف هذا الكتاب»[1].

وأمَّا الكتاب فهو يحتوي على موضوعات مهمات تتعلق بالعقيدة والعبادة والسلوك وعناوينها البارزة كالتالي:

نظرة في الكتب التوجيهيـة التربويـة، طبيعـة هذا الدين وسـماته البارزة، العقيدة الإسلامية السنيَّة، العبادة: مكانتها في الإسلام، الأذكار والأدعية المختصَّة بالأعمال والأوقات، الجهاد في سبيل الله، تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس، والأخلاق والشمائل النبوية، المدرسة الربَّانية لتهذيب الأخلاق وتزكية النفوس، أهمية الحضارة الإسلامية.

---

(١) مقدمة الكتاب، ص٢١ - ٢٢.

وينتهي الكتـاب بإيراد تجارب وتوصيـات وهي تتركّـز على اثنتي عشرة نقطة، تزيد الكتاب قيمة وأهمية وفائدة ونفعاً، وتلك حاجة العصر، وبغية الزمن، وزاد الدنيا والآخرة، لابدَّ من أن يتزوَّد بها كل مؤمن ومسلم.

* * *

٩ ـ نحو التربية الإسلامية الحرَّة

في الحكومات والبلاد الإسلامية

الدعوة والتربية تسيران معاً ولا تنفصلان ولا تفترقان، وذلك من فجر الإسلام إلى يومنا هذا، وكلَّما فقدت الدعوةُ التربيةَ والعلمَ قلَّ تأثيرها وفعالياتها، لأجل هذا كان العلماء والدعاة يهتمون بالتربية والعلم، وبعد أن ابتلي العالم الإسلامي بالاستعمار الغربي ونظمه التعليمية والتربوية، التي طُبِّقت في المدارس والجامعات، فبرز على إثرها نظامان مختلفان بعضهما عن بعض، فصار هناك القديم والجديد، أو الإسلامي والغربي، شغل أمرُ التعليم والتربية بال الدعاة والعلماء، وكان سماحة الشيخ الندوي قد أولى عنايته البالغة بالتربية، وتعرَّض لها في معظم مؤلفاته، وبدأ يكتب مقالات ويلقي محاضرات منذ الخمسينيات، فقد ألقى محاضرة في القاهرة بعنوان (كيف توجَّه المعارف في الأقطار الإسلامية) ونشرت له مقالات عام ١٩٥٠م في مجلة (البلاد السعودية) ومقالات ومحاضرات في بعض المدارس والجامعات، ودعاه معالي الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ رحمه الله وزير التعليم العالي السعودي إلى الرياض عام ١٩٦٨م لإلقاء محاضرات عن التربية الإسلامية، وجُمعت هذه المقالات والمحاضرات تحت عنوان الكتاب الذي نحن الآن بصدد التعريف به.

وقد أفاض رحمه الله في بيان أهمية التعليم الإسلامي وقيمة التربية معه فقال:

«إن التربية لا تقلُّ أهمية عن التعليم، وإذا خلا التعليم عن التربية أصبح بلا نتيجة في أكثر الأحيان، ونقصاً في ناحية التربية ليس بأقل من نقصنا وفقرنا في ناحية التعليم ومنهاج دراسته، وموضوع التربية موضوع واسع، طويل الذيل، وكثير الشعب والنواحي»[١].

وقد قدَّم سعادة الأخ الفاضل والعالم المربِّي الدكتور محبُّ الدين أحمد أبو صالح حفظه الله بحثاً قيِّماً عن (التربية الإسلامية عند سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي) إلى الندوة العالمية لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في إستنبول (تركية).

وأشار فيه إلى:

«أهمية التعرُّف على الفكر التربوي الإسلامي ـ أو التربية الإسلامية ـ عند سماحة الشيخ الداعية المربِّي أبي الحسن علي الحسني الندوي، باعتباره من كبار علماء العالم الإسلامي، وقادته الفكريين والأدباء، والدعاة والمربين، وذكر الباحث أن من مزايا الشيخ أنه شخصية مربِّية بذاتها، ومربِّية بكتبها ومؤلفاتها، ومربِّية بمحاضراتها وخطبها، ومربِّية بدعوتها الحكَّام والمسؤولين التربويين إلى وجوب الأخذ بالتربية الإسلامية، والابتعاد عن النظم التربوية ـ المستعارة ـ الغربية والشرقية، وشخصية الشيخ مربِّية ـ أيضاً ـ بمشاركتها في التخطيط لبعض الجامعات والمؤسسات العلمية الجديدة، وفي تطوير القديم منها»[٢].

* * *

---

(١) نحو التربية الإسلامية الحرة، ص١٧.

(٢) مجلة البعث الإسلامي: عدد ممتاز عن فقيد الأمة، ص٢٠٤ ـ ٢٠٥.

١٠ - ربَّـانية لا رهبانية

شُغل المسلمون منذ العصر الأول للإسلام، بالتزكية والإحسان، واستظلوا بظلالهما، وعاشوا عيشة التقى والطهر والولاء والوفاء، والخير للجميع، والفلاح والهدى للإنسانية جمعاء، ونشر الأمن والسلام والوفاق والوئـام، وبتقديم أسوة حسنة وقدوة صالحة بالالتزام والعمل الدائب بتأدية الفرائض والواجبات من العبادات المكتوبة، وبالتركيز على العقيدة الراسخة القويمة السليمة، جمعاً بين الدنيا والآخرة، والدين والدولة، بدون الانزواء والانقطاع والابتعاد عن المجتمع الإنساني، بل كان الابتعاد عن المعاصي والتجنُّب من المآثم، نصب أعينهم دائماً.

هؤلاء هم الربَّانيون الذين تحدَّث عنهم سماحة الشيخ الندوي رحمه الله، وكانت له صلات وثيقة معهم يشهد مجالسهم، ويتمتَّع بأحاديثهم، ويجدِّد بالجلوس معهم إيمانه، ليس مع أولئك المتظاهرين بالزهد والتقى وهم متلبسون بالرهبانية أو بالأوهام والخرافة، والدجل والشعوذة، وهذا الكتاب يميز بين هذا وذلك، وينوِّه بالربَّانية ويضرب أمثلة رائعة مثالية لها ونماذج صالحة لأولئك الربَّانيين الذين كانت حياتهم وأعمالهم وأحاديثهم طبقاً للكتاب والسنَّة ليس غير.

وقد عرَّف فضيلة الداعية المفكِّر والفقيه الدكتور يوسف القرضاوي الكتاب، فقال:

«ربَّانية لا رهبانية كتاب يتحدَّث عن الجانب الروحي أو السلوكي

في الإسـلام، لا حديث الصوفي المتأثر بفلسـفة الحلول والاتحاد، ولا بالطرقية المرتزقة، بل حديث المسلم الملتزم بالكتاب والسـنَّة، العارف الذائق الذي خاض التجربة الروحية، فلم يغرق في بحار القوم، بل خرج بلآلئ وجواهر انتفع بها، ولم يحجبه عنها المصطلحات التي قد تنفِّر ولا تبشِّر، فالعبرة بالمسمَّيات لا بالأسماء، وبالمضامين لا بالعناوين»[١].

إنَّ الكتـاب مجموعة مقالات كتبها المؤلف الكريم لمناسـبات مختلفة، ليقدِّم مرآة صافية نقيَّة للحياة التي يجب على الجيل المسلم أن يحياها في عصرنا هذا، وهو عصر قد ابتلي بصور متنوعة عجيبة غريبة من ممارسات وطقوس دينية لا تمتُّ بصلة إلى حياة عاشها الربَّانيون الذين أثَّروا في البيئة التي كانوا فيها، والمجتمع الذي تأثَّر بهم، وتنوَّر بسلوكهم القويم وخلقهم النبيل، واهتدى بأعمالهم وأفكارهم ومثلهم العليا خلق كثيـر، وعمَّ الخيـر والصلاح والفلاح والخدمة والإسعاف والمؤازرة والمواساة في الأوساط الإنسانية، ولكن مضت فترة خلت الديار من أمثال هذه النماذج الخيِّرة، ونشأ فراغ كبير في المجتمع.

وقد أشار إلى ذلك سماحة الشيخ الندوي رحمه الله فقال:

«إنني لا ألحُّ على منهاج خاصٍّ من التزكية درج عليه جيل من أجيال المسلمين، واشتهر في الزمن الأخير بالتصوُّف ـ من غير حاجة إلى ذلك، فقد كان في كلمات الكتاب والسنَّة ومصطلحاتهما غنى عنه، ولا أبرِّئ طائفة ممَّن تزعَّم هذه الدعوة واضطلع بها، من نقص في العلم والتفكير، أو خطأ في العمل والتطبيق، ولا أعتقد عصمتها، فكلٌّ يخطئ ويصيب، ولكن لا بدَّ أن نملأ هذا الفراغ الواقع في حياتنا ومجتمعنا، ونسدّ هذا

---

(١) قيمة الأمة الإسلامية، ص٤٢ ـ ٤٣.

المكـان الذي كان يشـغله الدعاة إلى الله والربَّـانية والمشـتغلون بتربيـة النفوس وتزكيتها وتجديد إيمانها وصلتها بـالله، والدعـوة إلى إصـلاح الباطن، والعناية بالفرد قبل المجتمع، وأقول للمتحمِّسين في نقد هؤلاء الدعاة والمنكرين عليهم، بلسان الشاعر العربي (الحطيئة):

أقلُّـــوا عليهـــم لا أبـــا لأبيكـــم
من اللَّوم أو سُـدُّوا المكان الـذي سَـدُّوا[1]

إنَّ هذا الكتـاب الصغير الذي لا يزيد عن (١٥٢) صفحـة يتحدَّث بكل صراحة ووضوح وجراءة ونصح عن ربَّانية مثَّلت دوراً حيوياً كبيراً في المجتمع، وجعلتـه يبتعد عن التواكل والتكاسـل والجمود، والتصلُّب والتطرُّف، والخمـود، وملأتـه نشاطاً وحيوية وعملاً وإنتاجاً وإبداعـاً، وقائماً بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه الربَّانية هي حاجة العصر، ومطلب المجتمع، وضرورة الأمة والإنسانية على السواء.

* * *

(١) ربـانية لا رهبانيـة، ص٢٦، طبعة دار القلم بدمشق ضمن سلسـلة كتب قيمـة رقم (٣٧).

١١ ـ العرب... والإسلام

(العرب والإسـلام) كتاب قيِّم فريد متميِّـز، يتأسـس على عقيدة ويقين بأنَّ العرب والإسلام جزآن لا يتجزآن، ولا ينفصلان، ويسيران معاً منذ أن ابتعث الله عز وجل بالإسلام محمداً العربي القرشي عليه أفضل الصلاة والتسليم، فساد الجزيرة وقادها إلى الدين الإبراهيمي الحنيف، ثم خرج العرب بالإسلام إلى الدنيا الواسعة الشاسعة وقادوها وحكموهـا وأقاموا دولة مثالية تحكم بالعدل والقسط، وتُشيع السلام والوئام، وتبثُّ الخير والبرَّ والنفع، والعيش المطمئن الرغيد، يتعاون فيـه العـرب والإسلام، فكانا زميلين مترافقين، متحابين، يخلص كلٌّ منهما للآخر.

يقول سماحة المؤلف رحمه الله:

«عقد الله بين العرب والإسلام للأبد، وربط مصير أحدهما بالآخر، فلا عزَّ للعرب إلا بالإسلام، ولا يظهر الإسلام في مظهره الصحيح إلا إذا قاد العرب رَكْبه وحملوا مشعله، وقد حرص رسول الله ﷺ على بقاء هذا الرباط الوثيق المقدَّس بين العرب والإسلام، فجعل جزيرة العرب مركز الإسـلام الدائم وعاصمتـه الخالدة، وحرص على سلامة هذا المركز، وهدوئه وشدَّة تمسُّكه بالإسلام»[١].

وأوضح هذه النقطة بالكلمة التالية فقال:

«وعاش العرب وعزُّوا بالإسلام وسادوا الدنيا، وانتشرت لغتهم

---

(١) مقدمة الكتاب، ص٤.

وثقافتهم في بلاد وأقطار وبيئات لم تكن تنتشر فيها وترسخ قدميها لولا الإسلام ولولا القرآن، واتخذها العلماء والأذكياء لغة دين وعلم وتأليف، لم يكونوا فاعلين ذلك لولا أنها لغة الإسلام الرسمية ومفتاح المكتبة الإسلامية، وقد حمل كثيراً من علماء بلاد العجم وأئمَّتها ممَّن ولدوا ونشؤوا في هذه الديار حبُّهم للعرب وفقههم للدين على أن يتعربوا في كثير من عاداتهم وشعاراتهم، ويحافظوا على اللغة العربية وآدابها ويتواصوا بذلك، ويجعلوها كلمة باقية في أعقابهم، ويحذروا من تقليد العجم والتخلُّق بأخلاقهم، وما ذاك إلا للحبِّ العميق الراسخ للنبي ﷺ وأصحابه، ولأنه ظهر في العرب، وارتضى الله لهذا الدين المظهر الإبراهيمي العربي في الأخلاق والآداب والميول»[1].

كانت تلك الصلة الوثيقة سرّ نجاح العرب وفوزهم بالقيادة العالمية والسيادة الدولية، وحينما ضعفت صلاتهم بالإسلام ورسالته أصيبوا بانحطاط وضعف وتخلُّف، وزاد الطين بلّة عندما تحوَّلت العروبة إلى القومية العربية التي خلت من الإسلام، وانفصلت عنه، ونادى دعاة القومية بمبادئ وأفكار ونظرات صيغت بعيداً عن أرض العروبة وبأيدي أجنبية غريبة عن خصائص العربية ومميزاتها وصفاتها، وعاداتها وتقاليدها وأخلاقها وطبيعتها.

وقد سلط سماحة الشيخ الندوي رحمه الله أضواء ساطعة عليها، وردَّ على مزاعم القوميين، وخاطبهم وخاطب البلاد التي زارها وحلَّ فيها بكلِّ حبٍّ وتقدير وحرقة وإخلاص، فكتب عدداً من المقالات المؤثِّرة تحت هذه العناوين: اسمعي يامصر، اسمعي ياسورية، اسمعي يازهرة الصحراء (الكويت)، من العالم إلى جزيرة العرب، من الجزيرة العربية

---

(١) المصدر السابق، ص٦.

إلى العالم، اسمعوها مني صريحة أيها العرب، إلى الراية المحمدية أيها العرب، أجاهلية بعد الإسلام أيها العرب؟ لا تحرجوا الأوفياء للإسلام بموقفكم أيها العرب!!.

وصدرت له كتب وانطباعات عن رحلات إلى بلاد العرب: الفتح للعرب المسلمين، كيف دخل العرب التاريخ؟، والعرب يكتشفون أنفسهم، كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب؟، مذكرات في الشرق الأوسط، من نهر كابل إلى نهر اليرموك، ونفحات الإيمان من صنعاء إلى عمان.

يحكي المؤلف في كل هذه المؤلفات قصة العرب والإسلام، ويدعوهم جميعاً بقلب جريح دامٍ وبكلِّ إخلاص ووفاء وبروح عربية إسلامية زكية طاهرة إلى الإسلام من جديد، مجاهراً بكلِّ فخر واعتزاز:

«إنني لا أقلُّ من أكبر عربي يعيش في العواصم العربية في عربيتي ونسبي الصريح وحبي للعرب، وتضلُّعي من ثقافتهم وعلومهم وآدابهم ولغتهم، وليس أحد من إخواني العرب الأقحاح أولى بالاعتزاز بالعربية مني وأوفر نصيباً مني، ولكن الإسلام أفضل من كلِّ نسب وأقوى من كلِّ عصبية»

ويخرج بنتيجة يعبِّر عنها بقوله: «أعتقد أن طبيعة العرب اختمرت مع الدين الإسلامي، وامتزجت به امتزاجاً لا يسهل فصلهم وتجريدهم عنه، وبالرغم من أنه خضع لفكرة القومية عدد كبير من الشباب المثقفين واحتضنوها وحملوا رايتها، فإن الجمهور من العرب لا يزالون شديدي الحبِّ للإسلام، لا يعرفون ما عداه ولا يهتزون لسواه»[1].

* * *

(١) العرب والإسلام، ص١٥.

١٢ - إلى الإسلام من جديد

ابتلي العالم الإسلامي منذ أواخر القرن التاسع الميلادي بغارة غربية أوروبية شديدة عنيفة سافرة، ولم تكن تلك الغارة على بلاد العالم الإسلامي منصبَّةً على حكمها وسياستها، وثروتها، وذخائرها ومعادنها واقتصادها ومنابع حياتها ومفاتيح كنوزها فحسب، بل على دينها، وشعائرها، وقيمها ومبادئها وأخلاقها وتقاليدها، وعلى لغتها العربية، وثقافتها العربية، وعروبتها وحضارتها ورسالتها الخالدة.

وكانت تلك الغارة تتمثَّل بحصار وقيود وأغلال، وشعر العرب والمسلمون فجأة بأنهم في زنزانات مغلقة مظلمة، سدَّت الأبواب والنوافذ بالشمع الأحمر، فاندهش الناس واحتاروا، وانهارت قواهم، ووجِّهت إليهم تهم وافتراءات وأكاذيب وأباطيل، أشاعت لفترة اليأس والانهزام.

ولكنهم سرعان ما استيقظ في بعضهم إيمان ووعي أدركوا معه الخطر المحدق، الذي انتشر وعمَّ، فواجه هؤلاء المتحمسون وأصحاب الغَيْرة على الإسلام وكيانه وقيمه تلك الغارة وآثارها، وكان منهم شيخنا أبو الحسن الندوي رحمه الله، فتصدَّى لهذا التيار المنحرف الجارف، وواجهه بكتابات فكرية علمية موضوعية منذ الثلاثينيات، وبنداءاته المجلجلة القوية الواضحة الصريحة، وصدرت له مقالات متتابعة متواصلة منها: إلى ممثلي البلاد الإسلامية، معقل الإنسانية، المدُّ والجزر في تاريخ الإسلام، بين الصورة والحقيقة، ثورة في التفكير، بين الجباية والهداية، دعوتان متنافستان، مصرع الجاهلية، أزمة إيمان وأخلاق، العوامل الأساسية لكارثة فلسطين، ارتباط قضية فلسطين بالوعي الإسلامي، ردَّة... ولا أبا بكر لها.

جميع هـذه المقالات والمحاضرات كتبت وألقيت في مناسبات مختلفـة، وبظروف وألوان متنوعة، ولكن مقالـه الثائر المؤثر الرائع: (ردَّة... ولا أبا بكر لها) الذي كتب افتتاحية لمجلة (المسلمون) بطلب من رئيس تحريرها الدكتور سعيد رمضان رحمه الله كان له صدى خاص، فحينما صدر المقال أثار الشعور، وهزَّ القلوب ولفت الأنظار، وأقبل القرّاء العرب عليه إقبالاً منقطع النظير.

أذكر أنني كنت مع زملاء لي في كلية الشريعة بجامعة دمشق، إذ دخل علينا فضيلة شيخنا المحدِّث الجليل السيد محمد المنتصر الكتاني المراكشي رحمه الله وكان متحمِّساً ومهتزّاً، رافعاً صوته بتأثر بالغ، وفي يده اليمنى مجلة (المسلمون) ومخاطباً تلاميذه: سأقرأ لكم في هذه الحصة مقالاً للشيـخ أبي الحسن لم يصدر مثلـه، وهو تعبير صادق واقعي دقيـق لحاضر المسـلمين، وقرأ المقالـة فبكى وأبكى، وأدمع العيـون، وأدمى القلوب، وأثار الشجون، وحفز همم الشباب، فتحمَّسوا للعمل، وعقدوا العزم للسـير قدماً إلى ميادين الدعوة والإصلاح والرشـد والهدى، وإلى الإسلام من جديد.

تحدَّث سماحة الشيخ رحمه الله في مقاله عن ردَّة اكتسحت العالم الإسلامي بعد الغارة الأوروبية الغاشمة فقال:

«ولكن حرب العالم الإسلامي في العهد الأخير ردَّة اكتسحت عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه، وبزَّت جميع حركات الردَّة التي سبقتها في العنف وفي العموم، وفي العمق والقوة، ولم يخلُ منه قطر، وقلَّما خلت منها أسرة من أسر المسلمين، هي ردَّة تلت غزو أوروبة للشرق الإسلامي، الغزو السياسي والثقافي، وهي أعظم ردَّة ظهرت في عالم الإسلام وفي تاريخ الإسلام، منذ عهد الرسول ﷺ إلى يوم الناس هذا»[1].

---

(١) إلى الإسلام من جديد، ص١٧٢ ـ ١٧٣ طبعة دار القلم بدمشق.

ثم يطالب العالم الإسلامي بالقضاء على هذه الردَّة بدعوة إسلامية جديدة فيقول:

«إن العالم الإسلامي في حاجة شديدة إلى دعوة إسلامية جديدة، وإن هتاف الدعاة والعاملين فيه وهدفهم اليوم (إلى الإسلام من جديد)، ولا يكفي الهتاف، إنه لا بدَّ من تصميم حكيم قبل العمل، لابدَّ من تفكير هادئ عميق، كيف نردُّ الطبقة المثقفة التي تحتكر الحياة وتملك الزمام إلى الإسلام من جديد، وكيف نبعث فيهم الإيمان والثقة بالإسلام، وكيف نحرِّرها من رقِّ الفلسفات الغربية والحضارة العصرية ونظرياتها اللادينية؟.

إنه في حاجة إلى رجال ينقطعون إلى هذه الدعوة، ويكرِّسون لها علمهم ومواهبهم وكفايتهم، ولا يطمعون بمنصب أو جاه أو وظيفة أو حكومة، ولا يحملون لأحد حقداً، ينفعون ولا ينتفعون، ويعطون ولا يأخذون، ولا يزاحمون طبقة في شيء تحرص عليه وتتهالك، حتى لا تكون لها حجَّة عليهم، ولا للشيطان سبيل إليهم، شعارهم الإخلاص والتجرُّد عن الشهوات والأنانيات والعصبيات، إن العالم الإسلامي في حاجة إلى منظمات علمية تهدف إلى إنتاج الأدب الإسلامي القوي الجديد الذي يعيد الشباب المثقف إلى الإسلام بمعناه الواسع من جديد، ويحرِّرهم من رقِّ الفلسفات الغربية التي آمن بها كثير منهم بوعي ودراسة وأكثرهم بتقليد وتسليم، ويقيم في عقولهم أسس الإسلام من جديد، ويغذي عقولهم وقلوبهم، إنه في حاجة إلى رجال في كل ناحية من نواحي عالم الإسلام عاكفين على الجهاد»[1].

وأمَّا الكتاب فكله يحتوي على مثل هذه الحوافز، ويشحذ الهمم

---

(١) إلى الإسلام من جديد، ص١٨٦ ـ ١٨٧.

إلى إيمان جديد بقوة وحماس شديد، وهو مجموعة مقالات وأحاديث كتبت أو ألقيت بمناسبات عديدة مختلفة، وتشتمل على اثني عشر عنواناً، وجدير بأن يقتنى ويقرأ ويلتزم به، صفحاته (١٩٢) صفحة، طبع عدَّة مرات في الهند والبلاد العربية[١]، أمَّا موضوعاته فهي كما يلي:

إلى ممثلي البلاد الإسلامية، معقل الإنسانية، المدُّ والجزر في تاريخ الإسلام[٢]، بين الصورة والحقيقة، ثورة في التفكير، بين الجباية والهداية، دعوتان متنافستان، مصرع الجاهلية، أزمة إيمان وأخلاق، العوامل الأساسية لكارثة فلسطين، ارتباط قضية فلسطين بالوعي الإسلامي، ردَّة... ولا أبا بكر لها.

فكلُّ موضوع من المواضيع المذكورة أعلاه دعوة مخلصة جامعة شاملة، ونداء قوي مجلجل، وهتاف عال رفيع لإيقاظ الضمائر، وإحياء القلوب وإيقاد جمرات الأفئدة لتشتعل ثورة في المجتمع وتعود به إلى إيمان جديد غضٍّ طري، وتدوي صرخة في آذان جمهور المسلمين إلى الإسلام من جديد.

وقد حدث أن الشيخ رحمه الله سافر إلى سري لنكا بدعوة من جامعتها الإسلامية عام ١٩٨٢م، فرحَّب به نائب رئيس الجامعة الدكتور محمد شكري، وقال: إن فكرة إقامة هذه الجامعة إنما تبلورت وقويت بل ظهرت بعد مقالكم: (ردَّة ولا أبا بكر لها)، وقد أعجب الحاج المؤسس بهذا الموضوع، وملك عليه تفكيره وقلبه[٣].

* * *

(١) طبع هذا الكتاب في دار القلم بدمشق.

(٢) أخرجت دار القلم بدمشق هذا البحث في أحد أجزاء سلسلتها (كتب قيِّمة) تحت رقم (٢٣).

(٣) في مسيرة الحياة: ١/ ٤١٨.

١٣ ـ المدخل إلى الدراسات القرآنية

لقد اعتنى الشيخ الندوي منذ نعومة أظفاره بكتاب الله عـزَّ وجلّ واهتمَّ بفهم معانيـه وتذوُّقها، وقـد حظي بأسـاتذة وشـيوخ ومشـتغلين بالقرآن الكريم بمصادر علومه القديمة والحديثة، فأشرفوا على دراسـته وتذوُّقه لآياته وتفسيرها ومعانيها وعلومها فبرع فيها، وحينما عُيِّن مدرِّساً في دار العلوم لندوة العلماء كُلِّف بتدريس معاني القرآن الكريم وعلومه إلى جانب اللغة العربية وآدابها، وذلك في الثلاثينيات، وألقى محاضرات أمام طلبته، وجمعت تلك المحاضرات وطبعت فيما بعد.

بدأ الشيخ يلقى محاضرات عن القرآن الكريم يبيِّن فيها خصائصه ومزاياه وعلومه، واختار منحًى يختلف عمَّا اعتادته الأوساط التدريسية للقرآن في مدارسنا وجامعاتنا، وشقَّ طريقاً جديداً في التدريس وتقديم المعلومات الوافية الكافية عمَّا يتعلَّق بالقرآن وسوره وآياته وقصصه، فهو يذكر الأحوال والظروف والأمكنة والأمم التي ورد ذكرها فيها، ثم يتحدث عن نزول هذا الكتاب السماوي الأخير، وأهميته وقيمته ومزيته بين الكتب السماوية الأخرى، ويبرهن عليه من الكتب السماوية بنفسها، ويقوِّي دلائله بتحقيقات ودراسات وكشوف حديثة، ويركِّز على الغاية السامية والهدف الأصيل لهذا الكتاب المنزَّل من الله عزَّ وجل، الذي هو هداية للبشر، وإخراج لهم من الظلمات إلى النور، ومن ظلم الأديان إلى عدل الإسلام، يتناول ألفاظ القرآن، ويشرحها بحيث يدرك الطالب معناها ويتذوَّقها.

وقد ركّز المؤلف تركيزاً خاصاً على إحدى النبوءات القرآنية الهامة التي تحققت كغيرها من النبوءات الأخرى، وهي نبوءة غلبة الروم على الفرس، التي تعتبر لغزاً من ألغاز التاريخ عند المؤرخين الغربيين، ولكن المؤلف حلَّ هذا اللغز في ضوء مشكاة القرآن مع تحليل الأوضاع السياسية والعسكرية، والعوامل الاجتماعية والخلقية والدينية وراء الهزيمة والانتصار في القرن السادس الميلادي[1].

إنه كتاب موضوعي فريد، ومنهل عذب صافٍ لدارسي القرآن الكريم، والمعنيين ببلاغته وإعجازه.

* * *

(١) استفدنا في هذا الموضوع نفسه من الكتاب ومن كتاب: أبي الحسن: كاتباً ومفكراً.

١٤ ـ الصراع بين الإيمان والمادية

إنَّ الأستاذ الندوي رحمه الله كان من العلماء الدعاة الذين تعمَّقوا في دراسة التاريخ الإسلامي والعالمي، وأصبح لهم باع طويل في هذا الموضوع، وكان قد أوتي مواهب وكفاءات متميزة نادرة في الفهم الصادق الشامل لقضايا التاريخ ومشكلاته ومسائله، وتحليلها تحليلاً واقعياً دقيقاً، وكان في كتاباته ومؤلفاته كلِّها يتَّسم بهذه الميزة، وكانت آراؤه ونتائجه موضوعية، تتصل بالدعوة والإصلاح وخير الأمة وفلاح الإنسانية.

وقد عالج في كتابه هذا القصص الأربعة التي وردت في سورة الكهف، وتأمَّل في هذه السورة بعمق وشمول، وكان يقرأ هذه السورة منذ أن فتح عينيه على الحياة كل جمعة إلى أن وافاه الأجل، ويفكِّر فيها ويستعرض عناصرها ووقائعها ورجالها، ومراميهم وأهدافهم.

لقد درس حياة رجال هذه القصة وقارن حياتهم بحياة هذا العصر، فلمس نفس الصراع الذي كان في حياة هؤلاء الأربعة، الذي يشاهد في الحياة المعاصرة وهو (الصراع بين الإيمان والمادية)، وهو نتيجة حضارة مادية سواء كانت في القديم أو في العصر الحديث، لا تختلفان.

لقد ظهر له أن تلك القصص التي تنوعت أساليبها وسياقها اتَّحدت في الغرض والغاية، والروح التي تجمع بينها وتربطها ربطاً معنوياً، عميقاً وثيقاً، إن السورة تحكي قصة الصراع بين النظريتين والعقيدتين والنفسيتين، صراع بين الإيمان بالمادة وما يتبعها، وبين الإيمان بالغيب،

والإيمان بالله، وشرح لما يتبع كل نظرة من العقيدة والعمل والأخلاق، والنتائج والآثار، وتحذير من اتخاذ النظرة الأولى التي تؤمن بالمادة وتكفر بالله والغيب.

والمؤلف كعادته في مؤلفاته يستعرض الحضارة الغربية التي تشكَّلت في جاهلية القرن العشرين، وتولَّدت في القرن السابع عشر، واختمرت في القرن العشرين، ويدرسها دراسة عميقة مظهراً سمات الحضارة الغربية وخصائصها وتأثيرها وسحرها غير العادي على الحياة والتفكير الإنساني.

يتجلَّى في الكتاب المؤلف رجلاً إيمانياً يدعو بقوة بأنَّ المادية هي الهلاك والدمار والهتك والفتك والسمُّ القاتل المدمِّر، والإيمان هو الحياة والنجاة والخير والفلاح والفوز والنجاح، وطيب العيش، وطمأنينة القلب، وسكينة الروح، وحسن الدنيا والآخرة، ومن فاز بالحسنيين فقد أفلح ونجا[١].

* * *

(١) قامت دار القلم بدمشق بطباعة هذا الكتاب ضمن سلسلتها (كتب قيِّمة) تحت رقم (١٤).

١٥ ـ المرتضى

سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

هذا الكتاب من أهمِّ مؤلفات سماحة الشيخ الندوي رحمه الله، سدَّ به فراغاً كبيراً في المكتبة الإسلامية الغنية، وكانت الحاجة ماسَّة إلى مثل هذا الكتاب يكتبه مثل هذا القلم الذي قام بتسطير سِيَر شخصيات ورجال الفكر والدعوة، وكان جديراً بأن ينهض هذا القلم السيَّال لكتابة سيرة رابع الخلفاء الراشدين الذي كان موضع خلاف ونزاع وصراع من قبل مذاهب واتجاهات وجماعات وأحزاب وشخصيات ورجال، وكان لكل واحد منهم رأي ونزعة وفكر ووجهة نظر فيه، ولم يكن هناك بحث ودراسة مركَّزة أمينة محايدة، ولو أن الكتب التي أُلِّفت عن هذه الشخصية العظيمة كثيرة عديدة، ولكنها كانت تعبِّر عن آراء مذاهب واتجاهات طبقاً لميولها وأهوائها.

وكانت قد صدرت مؤلفات قيِّمة عن الخلفاء الراشدين الثلاثة حتى في اللغة الأردية، فقد ألَّف العلاَّمة شبلي النعماني رحمه الله كتاباً فريداً عن سيدنا عمر بعنوان (الفاروق)، وألَّف العالم الجليل والثري السري السيد حبيب الرحمن الشروروني عن الخليفة الأول سيدنا أبي بكر الصدِّيق كتاباً سمَّاه (الصدِّيق)، وكذلك ألَّف العالم والمفكر والكاتب الجليل الشيخ سعيد أحمد الأكبر آبادي (صدِّيق أكبر)، وكتاباً عن الخليفة الثالث سيدنا عثمان بعنوان (عثمان غني) وحظيت هذه الكتب بالقبول.

ولم يصدر كتاب عن سيدنا علي المرتضى بهذا المستوى، فرجا الفيلسوف العلامة الكبير والكاتب الألمعي المفكر الجليل السيد عبد الماجد الدريابادي رحمه الله رئيس تحرير صحيفة (صدق جديد) بواسطة صحيفته، من سماحة الشيخ الندوي بأن يؤلِّف كتاباً عن حياة الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه فوعد بذلك، ولكن تأخر الأمر لأعمال ومشاريع متراكمة بين يدي الشيخ الندوي.

ثم صدر الكتاب في ١٤/ شوال ١٤٠٨هـ (٣١/ مايو ١٩٨٨م) وقد تلقَّاه الناس بالقبول، لأنه صدر على مستوى رفيع قيِّم، ودراسة رفيعة محايدة، وكان مرآة صافية واضحة جلية لشخصية سيدنا علي المرتضى رضي الله عنه، التي كانت خبيئة تحت سحب كثيفة، وحجب ثخينة مثقلة مظلمة، فبذل جهداً ضخماً، ودرس تلك الشخصية دراسة وافية وبموضوعية، استوعب كل ناحية من نواحي حياته، من طفولته في الجاهلية إلى شبابه وكهولته في الإسلام، وإلى خدماته الجليلة في صحبته الطيبة للنبي الكريم ﷺ، ورفقته الوفية الأمينة الصادقة المخلصة مع إخوانه الثلاثة من الخلفاء الراشدين الذين سبقوه.

لقد أبان المؤلف عن وقائع سيرة الإمام علي رضي الله عنه، وأزاح الغيوم المتراكمة، وأزال التهم والافتراءات والأوهام والأباطيل والخزعبلات التي أحاطت بشخصيته الجليلة الربَّانية الطاهرة.

يقول المؤلِّف الجليل رحمه الله:

«من الشخصيات المظلومة أو المهضومة حقها، شخصية سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، التي تراكمت عليها حجب كثيفة على مدى القرون والأجيال، لأسباب مذهبية طائفية ونفسية، ولم تُنصف حق الإنصاف، ولم تعرض للدارسين والباحثين وحتى للمحبِّين المجلِّين، في

صورتها الحقيقيـة وإطارها الواسـع الشامل، وفي استعراض أمين دقيق محايد للعصر الذي نبغت فيه والأحداث التي عاشتها، والمجتمع ورجاله وقـادته الذين عاصرتهم وتعاونت معهم، والمعضلات والمصاعب التي واجهتها، والقيم والمثل التي تمسَّكت بها أشدَّ التمسُّك، والخطة السياسية والإدارية التي آثرتها، ولم يبحث عن أسبابها ونتائجها، ولم تقارن بنقيضها وضدها ونتائجه لو فضَّله وسار عليه»[١].

فـالكتاب من أعظم مآثر الأسـتاذ الندوي رحمـه الله الذي راجع المصادر القديمة والحديثة، ودرس المذاهب والطوائف والحركات، دراسة نقدية تحليلية وخرج بلآلئ وجواهر تمتُّ بصلة بحياة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه النقية الصافية، الغنية الثرية النافعة المفيدة، وكانت النتيجة كما قال المؤلف:

«وبذلـك جاء الكتـاب اسـتعراضاً تاريخيـاً طويل المدى واسـع الأرجاء، ومساهمة متواضعة في عرض سيرة رجل كبير من كبار الجيل الإنساني، وخريجي مدرسة النبوة المنجبة النجباء»[٢].

وقـد حظي الكتاب بقبـولٍ حسـن، ونُقل إلى اللغـات الدوليـة والمحليـة الكثيرة مثل: الأرديـة، والفارسية، والتركيـة، والإنكليزية، والأندونيسية[٣].

* * *

(١) في مسيرة الحياة: ١/ ٢٣٨.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٢٣٩.

(٣) قامت دار القلم بدمشق بطباعة هذا الكتاب، وتفضَّل المؤلف فآثرها على سواها بهذا المؤلَّف القيِّم بعد أن انتهى من تأليفه في عام ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٦ ـ الإسلام: أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية

كتاب خطير فريد في موضوعه ومحبَّب لدى مؤلفه، فقد قضى حياته كلها في كتابة وبيان فضل الإسلام على الإنسانية، وكانت الإنسانية قد قطعت أشواطاً كبيرة في التقدم والرقي ومعطياته الحضارية تحت ظلال الإسلام وقيادة المسلمين وسيادتهم، وهي اليوم بأمسِّ الحاجة إلى فضله من جديد.

كان محاضرة مرتجلة ألقيت بدعوة من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، التابع لوزارة الإعلام بدولة الكويت، بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري الجديد عام ١٩٨٣م، ولكنها توسعت فيما بعد، ثم صدر للمؤلف كتاب آخر بعنوان: (القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التاريخ والواقع) وكان له صدى وتلقٍّ كريم في الأوساط الدينية والعلمية.

وهذا الكتاب الصغير الذي يحتوي على (١٤٤) صفحة والذي أنا بصدد التعريف به قد بذل المؤلف رحمه الله كعادته مجهودات ضخمة فيه، واستفاد من المراجع الإسلامية والأجنبية، واستعرض الموضوع استعراضاً علمياً وتحليلاً دقيقاً، وجاء بعشرة معطيات رئيسية، ومنح أساسية هامة من الإسلام، وبذلك ازداد نفعه، واحتل مكانة متميزة بين المؤلفات.

وقد أضيفت إليه مقالة أخرى قُدِّمت في نادي مكة، وعنونت باسم (أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين)، وكذلك كتبت مقالة مسهبة للمؤتمر العالمي الرابع للسيرة والسنَّة النبوية عقد في رحاب الأزهر الشريف في القاهرة، وكان عنوانها: (أثر الرسالة الإسلامية في الحضارة الإنسانية)، فظهر الكتاب في مجموعة مدروسة ضافية، وبحث علمي تاريخي، يسترعي انتباه الباحثين والمنصفين من المسلمين وغير المسلمين[1].

والكتاب جدير بأن يقرأه كل مسلم وكل مثقف، وتتحلَّى به خزائن مكتبات الدارسين والباحثين في العالم.

* * *

(١) استفدنا من مقدمة الكتاب في التعريف به.

١٧ ـ المسلمون وقضية فلسطين

قضية فلسطين من أهمِّ قضايا العرب والمسلمين في عصرنا الحاضر، إن لم نقل إنها أهمها وأخطرها، وأشدها حساسية، وصارت الشغل الشاغل للمسلمين جميعاً منذ أن رفض السلطان عبدالحميد الثاني رحمه الله أن يمنح اليهود والصهاينة فلسطين ليجعلوها دولة لهم، وطرد الزعيم اليهودي من بلاطه، فخرج مهدداً بأنه سيهدم خلافته ويمزقها تمزيقاً، وقد كان كما هدَّد بمؤامرة من القوى الأوروبية والأميركية والشيوعية الروسية.

لقد حاول جمهرة العرب والمسلمين بأن يجنِّبوا فلسطين هذا الشرَّ والمكر والخبث والدهاء، وعقدوا مؤتمرات وندوات، ولقاءات، ومحادثات، ونشبت حروب وقتال وكفاح وجهاد، وكان عامة المجاهدين مخلصين أوفياء، وكادوا أن يهزموا الأعداء شرَّ هزيمة، ولكن المؤامرة والخيانة، والخداع والجبن والخور والعمالة كل ذلك أدى إلى ما لم يكن بالحسبان، وتحوَّل الأمر إلى وصمة عار، نكَّست الرؤوس، وجلبت الحسرة والخجل والندامة، ولكن الشرفاء ورجال الغيرة لا يزالون مرابطين مكافحين، مجاهدين وقائمين بالعهد بأن ينقذوا الأرض المقدسة ويستردوا فلسطين المؤمنة من براثن الصهاينة، ومخالب الاستعمار الغاشم بإذن الله.

كان الأستاذ الندوي رحمه الله منذ الثلاثينيات يهتم بهذه القضية، ويكتب ويحاضر بها، ويلتقي القادة والزعماء والملوك والأمراء ويحدثهم

ويذاكرهم بشأنها، ويقدِّم مقترحات وحلول جذرية لهذه القضية الإسلامية الكبرى، وقد حضر عدَّة مؤتمرات، أذكر منها مؤتمر فلسطين الذي عقد في حزيران (يونيو) ١٩٥٦م، وكنت قد حضرت المؤتمر، وسمعت مقالته القيِّمة المؤثِّرة، وكلمات قادة المسلمين من الشرق والغرب، وكان مؤتمراً تاريخياً ضخماً.

إنَّ هذا الكتاب يشتمل على تلك المقالات والكلمات والأحاديث التي كتبها أو ألقاها في مثل هذه المناسبات، وهو صريح واقعي، مخلص وفي، في كل حرف وكلمة خرجت من قلمه ولسانه، يقول مؤلِّفه:

«وقد سبق لمؤلِّف هذا الكتاب أن بحث في هذا الموضوع قبل وقوع هذه المأساة (مأساة الخامس من حزيران ١٩٦٧م) في شكلها النهائي بعدَّة سنوات، وجرت على لسانه وقلمه بعض الحقائق التي تحققت فيما بعد، لأن القضية لم تكن غامضة ولا ملتوية، وإنما كانت تحتاج إلى شيء من التذوُّق للقرآن، وشيء من معرفة طبائع الأشياء، والاطلاع على مايجري في هذه المنطقة التي تقع عليها مسؤولية الدفاع عن هذه القضية.

ثم وقعت الواقعة، فجعلها موضوع تفكيره وبحثه وكتاباته، وصدرت عن قلمه ولسانه، عدَّة مقالات ومحاضرات نشرت في وقتها وتداولتها الأيدي، والتزم أن يكون كل ذلك في ضوء القرآن والنواميس الإلـهية، والسنن الأزلية التي بيَّنها القرآن، وشهد بها تاريخ الأمم، وأن يكون كل ذلك تصويراً للواقع الذي تعيش فيه هذه الأمة من غير مبالغة ولا صناعة، ومن غير تفاؤل ولا تشاؤم، ويضع أصابع قادة الفكر والرأي على الأمراض الحقيقية، ومواضع الضعف والعلَّة الأصيلة في الشعوب والمجتمعات العربية والإسلامية، وعلى علاجها الحاسم، وهي تختلف في الزمان والمكان، وتنقسم في مقال بالقلم، وحديث باللسان، وتربط

بينها وحدة جامعة، وهي محاولة الاهتداء إلى الأسباب الحقيقية، والإشارة إليها، والتحذير منها بصراحة، لا غموض فيها ولا التباس، ولا مداهنة فيها ولا نفاق.

ونشر المؤلف هذه المقالات والمحاضرات باسم (المسلمون وقضية فلسطين) للقارئ العربي الكريم، عسى أن يكون في هذا الكتاب إنارة سبيل، أو إثارة جانب من جوانب التفكير، وحمل على استئناف السفر من جديد﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥][1].

أمَّا الكتاب فقد كان له دويٌّ في الأوساط العربية والإسلامية، لأنه دعوة صريحة ومقارنة عادلة بين الربح والخسران، وهو دعوة جريئة إلى الاحتساب (احتساب القادة والشعوب)، وتسليطٌ للأضواء الساطعة على العوامل الواقعية لكارثة فلسطين، إنه دعوة قوية مخلصة لإزالة أسباب الخذلان قبل إزالة آثار العدوان، دعوة صريحة جريئة لتغيير شامل للحياة المترفة والإسراف والتبذير، ولفت النظر إلى التوازن والاتِّزان في طرق الحياة.

إنَّ ما ورد في هذا الكتاب من مقالات جريئة يوجب على كل عربي ومسلم والشباب منهم خاصة أن يقرؤا هذا الكتاب ويفكروا فيه، ويسيروا قدماً نحو الحرية والاستقلال، والعزَّة والمجد والتقدُّم والكرامة.

* * *

(١) مقدمة (المسلمون وقضية فلسطين)، ص٨ـ٩.

١٨ ـ المسلمون في الهند

تشرَّفت الهند بالإسلام في القرن الأول الهجري، ثم تتابعت الأجيال العربيـة وغير العربيـة واستوطنت بها، وأفادت الشـعب الهندي بفكرها وعقيدتها ومجهوداتها، ومهنهـا وحرفها، وعلومها وفنونهـا التي كانت تمتاز وتتفوق بها عليه.

ومثَّلت الأمة الإسلامية التي حكمت الهند أكثر من ثمانية قـرون، دوراً بطوليـاً رائعاً في كل ميدان من ميـادين الحياة، وأضاف علماؤهـا وأدبـاؤها وكتَّابها ومفكروها إلى المكتبة الإسلامية الغنية، ثروة علميـة وذخائر إسلامية ذات قيمة عظيمة، ونبغ فيها علماء وربَّانيون، مصلحون ودعاة، ومفكرون ومؤرِّخون، مفسرون ومحدثون وفقهاء، قلَّ أمثالهم في العالم الإسلامي الآخر، ولا تزال الهند تنجب رجالاً وشخصيات تقوم بخدمات جليلة نحو هذا الدين ونحو العلم والفكر والحضارة.

وكانت الحاجة ماسَّة إلى استعراض تاريخي شامل لدور المسلمين في الهند، وكانت الأسئلة توجَّه كثيراً في البلاد العربية بعد تقسيم شـبه القارة الهندية إلى دولتين: الهند وباكستان، بخاصة.

وقد ذكر سماحة الشيخ الندوي رحمه الله أنه كان يواجَه بمثل هذه الأسئلة في كل بلد عربي يزوره أو يحلُّ فيه: ما عدد المسلمين في الهند؟، هل لهم حرية العبادة والقيام بشعائر الإسلام، وكان يحدث ذلك لكل سـائح وزائر، ولمَّا يقال لهم بأن عدد المسـلمين فيها أربعون مليونـاً!! يستغربون ويتحيَّرون، وقد بلغ العدد الآن أكثر من مئتي مليون كما يرى

بعض أهل الخبرة في بلادنـا، وقد عقدوا العـزم وصمَّموا بـالحزم أنهم سيواصلون ما قام به أباؤهم وأسلافهم الكرام من خدمات علمية وثقافية وحضارية مثالية رائعة لهذا الوطن، بكل ثقة وإخلاص ووفاء، وقد سجلها المؤرخون في بعض مؤلفاتهم عن تاريخ الهند.

وأذكر هنا بكل فخر واعتزاز علاَّمة الهند الشيخ الفاضل السيد عبد الحي الحسني رئيس ندوة العلماء الأسبق، والد سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمهما الله، فقد ألَّف كتاباً في تراجم أعيان الهند في ثمانية مجلدات كبـار (وصدر حديثـاً باسم: الإعلام بمن في تـاريخ الهنـد من الأعلام) تشـتمل على نحو خمسـة آلاف تـرجمة، وكتاباً في تـاريخ الهند العلمي والتعليمي (الثقافـة الإسـلامية في الهند) أصدره المجمع العلمي العربـي بدمشـق، وكتابـاً في خطط الهند وآثارها أصدرته دائـرة المعارف العثمانيـة بحيدر آبـاد، باسـم (الهند في العهد الإسـلامي)، وكـان عملاً موسـوعياً ضخماً، وصدرت مؤلفات أخرى في علوم التفسـير والحديث والفقه، ولكن كل ذلك كان يحتاج إلى تعريف عام شـامل، فنهض الشيخ الندوي وألَّف هذا الكتاب (المسلمون في الهند) وتحدث فيه عن الهند بتفصيل.

يقول المؤلف: «ذلك يدفعني إلى أن أقدِّم إلى إخواني في الشـرق العربي هذا الكتاب، إنه يتحدث عن الهند وعن إخوانهم فيها قديماً وحديثاً، ويتناول هذا الحديث نواحي شتَّى في الحياة العلمية والاجتماعية والدينية، وعمَّا أضافه المسلمون إلى ثروة الهند منذ دخولها، وما أدخلوا عليها من إصلاحات وتجديدات في مختلف نواحي الحياة، وعمَّا أنتجه المسلمون في الهند في العلوم الإسـلامية، وما زادوا إلى تـراثها، ومن نبـغ فيها من العلماء الكبار والمؤلفين العظام، وعن مظاهر نشاط المسلمين العلمي والديني، ومراكزه الكبيرة في العصر الحاضر، وعن خصائص هذا الشعب

وطبيعته وشخصيته، وعن ماضيه وحاضره، وعن قضاياه الرئيسية ومشكلاته، عسى أن يكون حلقة ـ ظلَّت مفقودة زمناً طويلاً ـ في سلسلة تنوير الرأي العام وتزويده بالمعلومات الصحيحة، في سبيل التعارف الإسلامي[1].

وتبع هذا الكتاب، كتاب آخر عن (الدعوة الإسلامية وتطوراتها) تحدَّث فيه عن رجال الدعوة والحركات الإسلامية وخدماتها العظيمة وفي العصر الحاضر خاصة، وبذلك يشمل التعارف بكتابين قيِّمين الأعمال العلمية والثقافية والفكرية والدراسية، والنشاطات الدعوية والتربوية في حقل الدعوة والإصلاح.

كتاب يليق بأن تتزيَّن به مكتبة كل عربي، وكل إنسان ينطق بلغة الضاد، وفَّقه الله وسدَّد خطاه.

* * *

(١) المسلمون في الهند، ص٧ـ٨.

١٩ ـ إذا هبَّت ريح الإيمان

إنـه كتـاب جميل جليل كتب بلغـة بليغة سلسـة حلوة، وبأسـلوب عصري قصصي مؤثِّر، ورائع بديع، ملؤه النبع المتدفِّق الصافي العذب الطاهر الشـفاف، يحكي أجمل قصـة جهاد لرجل مؤمن مجاهد، سـجَّل صفحات خالدة من البطولة، والشجاعة، والشهامة، والوفاء، والإيثار، والإخلاص، والتضحية، والفداء، أقام دولة إسلامية في ثغور الهند، جدَّد بها عدل الإسلام، وروح الدين، وشرعة الله وسنَّة النبي ﷺ ومنهج الخلفاء الراشدين المهديين، ألا وهو السيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله، وذلك ما بين ١٢٠١ ـ ١٢٤٦هـ (١٧٨٦ ـ ١٨٣١م).

ألَّف الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله سلسلة رجال الفكر والدعوة، وألَّف عن تاريخ الإسلام ورجاله وشخصياته، إلى جانب كتاباته عن علوم القـرآن والحديث والفقـه والفكر والأدب، وعرض صـور المجاهديـن والربَّانيين. وألَّف كتاباً في مجلدين كبيرين عن الإمام أحمد بن عرفـان الشـهيد في اللغـة الأردية وهو يافع، فذاع صيته وحظي بعطف الكبـار ولطفهم، وتلقَّى الناس الكتاب بالقبول، ثم ألَّف كتاباً صغيراً عن الإمام الشهيد في اللغة العربية.

وأخيراً قدَّم لقرَّاء العربية هذا الكتاب الجيد الفريد، إذا أمسك القارئ هذا الكتاب ليقرأه فلا يكاد يتركه حتى ينهيه، وينسى نفسه، بل يجدها تتلاءم معه وتتوافق، تسير مع تلك الغاية التي استمات لها الإمام الشهيد،

وتجد وجودها في هذه المعركة الإيمانية الحاسمة التي وقع فيها صريعاً.

فالقارئ الكريم يشعر بحق لذَّة الجهاد والحنين إلى الشهادة والاستماتة في سبيلها، تدبُّ في عروقه، وتسري في جسمه، ويحسُّ بلذَّة الإيمان، ولذَّة الأدب والأسلوب القصصي في بيان عربي مبين.

* * *

٢٠ ـ مختارات من أدب العرب

١ ـ ٢

كتاب (مختارات من أدب العرب) من أجود الكتب المختارة، والنصوص الأدبية المنتخبة للمقرَّرات الدراسية في العصر الحاضر، وقد بذل الشيخ أبو الحسن مجهودات ضخمة مضنية، وأنفق سنوات طوال في إخراج هذه النصوص المختارة من بطون المصادر الأدبية القديمة والحديثة، واختار قطعاً أدبية بديعة، وعبارات رائعة من الكتب والمؤلَّفات التي كان الكتَّاب والأدباء لا يلتفتون إليها ظنّاً منهم بأنها من أقلام المفكِّرين، والمفسِّرين والمحدِّثين والدعاة والمصلحين، وهم لا يعدُّون من الأدباء، ولا يعتبرون من هذه الطبقة الأدبية الممتازة، التي تحصر الشعر والأدب في عصبتها وفرقتها وطائفتها، ولو كان أولئك أبلغ وأفصح وأكثر تأثيراً وروعة وجمالاً وسحراً بكتاباتهم وكلماتهم وأحاديثهم!

وقد أشار إلى هذا الكتاب أديب العربية الكبير الأستاذ علي الطنطاوي رحمه الله، فقال: «ولقد كنت أتمنَّى من قديم أن نخرج بتلاميذنا من هذا السجن الضيق المظلم الذي حشرناهم فيه، إلى فضاء الحرية، وإلى ضياء النهار، فلا نقتصر في الاختيار، على (وصف الكتاب) للجاحظ، وهو جمل مترادفة لا تؤلِّف بينها فكرة جامعة، ولا يمدُّها روح، ولا تخالطها حياة، وعلى ألاعيب ابن العميد، وغلاظات الصاحب، وهندسات القاضي الفاضل، فننفِّر التلاميذ من الأدب، ونكرِّهه إليهم!!.

وكنا نقول لهم: إنَّ البيـان الحق عند غيـر هؤلاء، وإنَّ أبـا حيَّان التوحيدي أكتب من الجاحظ، وإن كان الجاحظ أوسع رواية وأكثر علماً، وأشد تصرفاً في فنون القول، وأكبر أستاذية، وإنَّ الحسن البصري أبلغ منهما، وإنَّ ابن السماك أبلغ من الحسن البصري، وإنَّ النظر فيما كتب الغزالي في الإحياء، وابن خلدون في المقدِّمة، وابن الجوزي في الصيد[1]، وابن هشام في السيرة، بل والشافعي في الأم، والسـرخسي في المبسـوط، أجـدى على التلميذ وأنفع له في التـأدُّب من قـراءة حماقـات الصاحب ومخرقات الحريري وابن الأثير.

وكتبتُ في ذلك مراراً، فما التفت إلى ذلك أحد، فيئست منه، حتى وجدت كتاب أبي الحسن، فإذا هو قد نفض كتب الأدب والتاريخ نفضاً وحرثها حرثاً، فاستخرج جواهرها، فأودعها كتابه»[2].

لسـت بحاجة بعد هذه الكلمـة الصادقة الأصيلـة لأسـتاذنا علي الطنطاوي رحمه الله إلى مزيد من القول في بيان أهمية كتاب أبي الحسن الندوي، ولقد حدثني الأستاذ الطنطاوي مراراً في دمشق ومكة المكرمة عن أهمية هذا الكتاب وقيمته، واختياره الموفَّق وفوائده الجمَّة للطلاب والمعلِّمين والكتَّاب!!.

وضع الشيخ الندوي مشروعاً لإعداد منهج دراسي لتدريس اللغة العربية وآدابها منذ أن عُيِّن مدرِّساً في دار العلوم لندوة العلماء سنة ١٩٣٤م. وكان نصب عينيه غاية، وهي أن ينشئ في الطلاب ذوقاً أدبياً يتذوَّقون به اللغة والأدب، فاختار من الكتب والمؤلَّفات كما يقول: «هذه القطع الأدبية الدافقة بالحياة والقوة والجمال، وهي كثيرة وافرة في المكتبة العربية إذا

---

(١) المراد كتابه الممتع (صيد الخاطر).

(٢) مقدمة كتاب (المسلمون في الهند) ومختارات من أدب العرب، ص٦.

جمعت تكوَّنت منها مكتبة، لكنها منثورة مبعثرة في هذه المكتبة، مطويَّة مغمورة في أوراق كتب ومؤلفات لا تجدها في ركن الأدب والإنشاء في مكتباتنا العربية، ولا يذكرها المؤرِّخون للأدب في كتبهم»[(١)].

هذا الكتاب مع مقدِّمته الأدبية القيِّمة الخطيرة كان نواةً للأدب الإسلامي المعاصر وحركته القوية الجيَّاشة، ثم أنشئت رابطة الأدب الإسلامي العالمية، واحتلت مكانة عظيمة مرموقة في العالم العربي والإسلامي.

وألَّف شيخنا الندوي مع هذا الكتاب مقررات دراسية أُخرى للأطفال منها:

القراءة الراشدة في ثلاثة أجزاء، في لغة سهلة، بأسلوب إسلامي تربوي.

وقصص النبيين للأطفال في أربعة أجزاء، بأسلوب قصصي جميل شيِّق.

ومحمد رسول الله، وخاتم النبيين ﷺ.

وقصص إسلامية مختارة.

وكلها تلقَّاها الناس بالقبول، واختيرت في مناهج المدارس والجامعات في البلاد العربية والإسلامية، وصارت أعماله الأدبية وخدماته اللغوية موضوع دراسة وتحقيق في الجامعات، ونال عدَّة باحثين شهادة الدكتوراه عن شخصيته وخدماته الأدبية من جامعة كشمير، وجامعة بركة الله بوفال، وجامعة لكهنؤ، والجامعة المليَّة الإسلامية بدهلي الهند، وغيرها من الجامعات.



---

(١) مختارات من أدب العرب، ص٧.

٢١ - روائع إقبال

الدكتور محمد إقبال رحمه الله كان من نوابغ الهند وفلاسفتها ومفكِّريها، وكان شاعراً فذّاً مُفلِقاً، لم تنجب الهند مثله في هذا العصر، بمزاياه الشعرية والأدبية والعلمية، ومعلوماته الوافية، وقدرته البيانية، والنهل من المناهل الشرقية والغربية.

درس العلوم الشرقية، وتتلمذ على علمائها وأساتذتها، وارتحل إلى الغرب ودرس في ألمانية وإنكلترة، وعرف ثقافة الغرب وحضارته وفهمها وتعمَّق فيها بل توغَّل فيها، وخرج بمحاسنها ومساوئها، ثم درسها دراسة مقارنة تحليلية، فشاهدها مادية جاحدة لحقائق الكون، وأصول الطبيعة وروح الفطرة الإنسانية منكرة للروحانية والربَّانية والأخلاق النبيلة والمبادئ الحقَّة والقيم السامية، فأحسَّ بالخطر، وشعر بالدمار والخراب المصاحب لهذه المادية البحتة العارية من عقيدة الإلٰه الواحد الأحد الصمد، والتنكُّر السافر لرسالات السماء والأنبياء، وبخاصة رسالة النبي العربي الكريم عليه الصلاة والسلام.

لأجلِ هذا كان شعره وكتاباته كلها تركِّز على هذه المعاني، والتشبُّع بها، والتضلُّع برسالة الإسلام الخالدة، وبثّ الخير والفكر السليم والخلق النبيل، وإشعال ثورة روحية خلقية إسلامية على المادية الغربية والشيوعية الكافرة بالله عزَّ وجلّ.

وكُتب عن محمد إقبال الكثير، وترجم أدبه إلى لغات عالمية منها

اللغة العربية، ولقِّب بحقٍّ شاعر الإسلام، ولكن لم يوفَّ حقَّه، ولم تُبَلَّ غلَّة المتعطشين إلى شعره وفكره وفلسفته!!.

لأجل هذا كانت ترتفع نداءات إلى تأليف كتاب يترجم أفكاره وتعاليمه ترجمة سليمة واضحة، وكان الأستاذ علي الطنطاوي رحمه الله طلب من الشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله أن يعرِّف محمد إقبال بقلمه السيَّال، فكان هذا الكتاب وهو مجموعة مقالات ومحاضرات كُتبت وألقيت في مناسبات عديدة.

وأما الأستاذ الندوي فقد التقى بالدكتور رحمه الله في زمن كهولته، وكان هو يافعاً، وقدم له ترجمة عربية لقصيدة (القمر) فأعجب به وامتحنه، فاطمأن لأجوبته، وسمح له بترجمة شعره والتعبير عن فكره وفلسفته.

وكان الشيخ قد أعجب به وأحبَّه كثيراً، وكان من دواعي إعجابه حب الدكتور وعشقه وصلته الوثيقة المتينة بتراث الرسول الكريم ﷺ، وديوانه (أرمغان حجاز) (هدية الحجاز) ديوان شعر يشهد على هذا الحبِّ العظيم، وكذلك كان من حبِّه لفكر الدكتور محمد إقبال وأفكاره وتغنِّيه بالإسلام ورسالته، أنَّ سماحة الشيخ الندوي كان يستشهد بأقواله وأشعاره في معظم مؤلفاته، ويستلهم فيما يكتب من فكره وروحه، وحبِّه للإسلام، والدعوة القوية المجلجلة إلى التمسُّك بالإسلام، وبالإسلام وحده، ليس غير.

يجدر بي هنا أن أنقل كلمة كتبها شيخنا الندوي رحمه الله يقول فيها: «إنَّ أعظم ما حملني على الإعجاب بشعره هو: الطموح، والحبُّ، والإيمان، وقد تجلَّى هذا المزيج الجميل في شعره وفي رسالته أعظم ممَّا تجلَّى في شعر معاصر، ورأيت نفسي قد طُبعت على الطموح والحبِّ والإيمان، وهي تندفع اندفاعاً قوياً إلى كل أدب ورسالة يبعثان الطموح وسموَّ النفس، وبُعْد النظر والحرص على سيادة الإسلام وتسخير هذا

الكون لصالحه، والسيطرة على النفس والآفاق، ويغذِّيان الحبَّ والعاطفة، ويبعثـان الإيمان بـالله والإيمان بمحمد ﷺ، وبعبقريـة سـيرته، وخلـود رسالته، وعموم إمامته للأجيال البشرية كلها»[1].

والكتاب يقع في مئتين وأربع وعشـرين صفحة وذلك في أحدث طبعاته وأحسنها، وهي طبعة دار القلم بدمشق، وهو جميل ورائع وبديع وفريد، جدير كل الجدارة بأن تتزيَّن به كل مكتبة.

* * *

(١) روائع إقبـال، ص٩، طبعة دار القلم بدمشـق، وجدير بالذكـر أن هذه الطبعة فيها زيادة ليست في سائر الطبعات العربية الأخرى.



في الختام

في الصفحات القليلة السابقة قدَّمتُ للقرّاء الكرام خلاصةً موجزةً ولمحاتٍ مختصرة عن حياة سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني النَّدْوي رحمه الله، وهي على وَجازتها تُعطي القارئ تصوُّراً حَسَناً عن سيرة هذا العَلَم الجليل منذ ولادته حتى وفاته.

إنَّ بإمكان الكاتب المؤرخ لسِيَر الرجال أن يقدِّم ترجمة لأعاظم الرجال في صفحات معدودات، وفي كتيِّب صغير، وفي سِفْر كبير، وفي مجلّدات عديدة. والقارئ يجد في كل صورة قُدِّمت فيها تلك السِّيَر فائدة، وإن تفاوت مقدار هذه الفائدة بحسب كمية المعلومات والأفكار والفوائد التي قُدِّمت له.

إنَّ سيرة سماحة الشيخ النَّدْوي تحتاج أن تُقدَّم لعموم القرَّاء في عدَّة مستويات، منها الموجز كما فعلنا، ومنها المتوسط، ومنها الكبير والأكبر، لأنَّ حياته غنيَّةٌ جدّاً بالفضائل والأعمال الجليلة، والأفكار النبيلة، والخدمات العظيمة التي قدَّمها لدينه وأمته.

ولقد قدَّمتُ للقرَّاء الكرام في الفصل الثاني من هذا الكتاب تعريفاً موجزاً لحوالي عشرين كتاباً سطَّرتها يَراعتُه القديرة، وأودعتْ فيها علماً جمّاً، وفكراً نيِّراً، وتربية قويمة، وتركتُ المجال للقارئ أن يمتاح المزيد من فَضْل الشيخ من قراءة بقية كتبه الكثيرة.

إنَّ أبرز ما احتوته مؤلفات الشيخ النَّدْوي هو تعريفه المسلمين من جديد بقيمة دينهم وحاجة الناس إليه، وحثّهم البالغ على أن يحملوا رسالة

هذا الدين من جديد للبشرية التي هي أحوج ما تكون إليه . لقد عاش عمره المديد ينـادي بهذا الأمر ، ويدعـو إليه ، ويلهج بذكره والإلحاح عليـه . ويقدِّم للناس نماذج عملية لرجالات في تاريخ الإسلام ، تمثَّلوا الإسلام في سلوكهم ، وطبَّقوه في جميع أحوالهم ، وعاشوه في مجتمعاتهم ، وكأنه كان يودُّ أن يقول للناس : هاكم الإسـلام متمثِّلاً في حيـاة هؤلاء الرجال الأبرار .

إنَّ موعدي مع القارئ الكريم في كتاب موسَّع حافل إن شـاء الله ، تخرجه دار القلم بدمشق في سلسلتها الرائدة (أعلام المسلمين) يقدم حياة الشيخ وأعماله ومؤلفاته بصورة أتم .

ربِّ يسِّر وأعن ، ولك ربي الحمد والشكر على الدوام ، والحمد لله أولاً وآخراً .

محمَّد اجتباء النَّدوي

ملحق

في مؤلفات سماحة الشيخ الندوي باللغة العربية[1]

إعداد: الأستاذ طارق زبير الندوي

- أ -

١ ـ الاجتهاد ونشأة المذاهب الفقهية.

٢ ـ أحاديث صريحة في أمريكة.

٣ ـ أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين.

٤ ـ إذا هبت ريح الإيمان.

٥ ـ ارتباط مسير الإنسانية ومصيرها بقيام المسلمين بواجبهم، ودورهم في تكوين وحدة وتوجيه دعوة.

٦ ـ الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة.

٧ ـ أريد أن أتحدث إلى الإخوان.

٨ ـ إزالة أسباب الخذلان أهم من إزالة آثار العدوان.

٩ ـ أزمة إيمان وأخلاق.

١٠ ـ أسبوعان في المغرب الأقصى.

١١ ـ اسمعيات للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي.

١٢ ـ الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية.

---

(١) هذا الفهرس يشتمل على الكتب الكاملة وعلى المحاضرات والمقالات التي طُبعت منفردة، ثم أُدرجت في عدد من كتب المؤلف أو أخذت من الكتب الكاملة. (الناشر)

١٣ ـ الإسلام فوق القوميات والعصبيات .

١٤ ـ الإسلام في عالم متغير .

١٥ ـ الإسلام والحضارة الإنسانية وواقع العالم الإسلامي .

١٦ ـ الإسلام والحكم .

١٧ ـ الإسلام والغرب .

١٨ ـ الإسلام والمستشرقون .

١٩ ـ اسمعوها مني صريحة أيها العرب .

٢٠ ـ اسمعي يا إيران .

٢١ ـ اسمعي يا زهرة الصحراء .

٢٢ ـ اسمعي يا سورية .

٢٣ ـ اسمعي يا مصر .

٢٤ ـ أضواء على الحركات والدعوات الدينية والإصلاحية، ومدارسها الفكرية ومراكزها التعليمية والتربوية في الهند .

٢٥ ـ أكبر خطر على العالم العربي المؤامرات والمخططات الدقيقة العميقة لقطع العرب عن الإسلام (استعراض تاريخي تنبيه وإنذار) .

٢٦ ـ إلى الإسلام من جديد .

٢٧ ـ إلى الراية المحمدية أيها العرب .

٢٨ ـ إلى شاطئ النجاة .

٢٩ ـ إلى قمة القيادة العالمية .

٣٠ ـ إلى ممثلي البلاد الإسلامية .

٣١ ـ الإمام الحسن البصري .

٣٢ ـ الإمام عبد القادر الجيلاني .

٣٣ ـ الإمام الذي لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف به (أحمد بن عرفان الشهيد).

٣٤ ـ الإمام الشهيد حسن البنَّا.

٣٥ ـ الإمام محمد بن إسماعيل البخاري وكتابه صحيح البخاري.

٣٦ ـ الأمة الإسلامية وحدتها ووسطيتها وآفاق المستقبل.

٣٧ ـ أمريكة وأوروبة وإسرائيل.

٣٨ ـ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب.

٣٩ ـ أهمية الحضارة في تاريخ الديانات وحياة أصحابها.

٤٠ ـ أهمية نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلامية وأثره البعيد في اتجاهاتها وقياداتها.

ـ ب ـ

٤١ ـ بين الإنسانية وأصدقائها.

٤٢ ـ بين الجباية والهداية.

٤٣ ـ بين الدين والمدنية.

٤٤ ـ بين الصورة والحقيقة.

٤٥ ـ بين العالم وجزيرة العرب.

٤٦ ـ بين نظرتين.

ـ ت ـ

٤٧ ـ تأملات في القرآن الكريم.

٤٨ ـ التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية.

٤٩ ـ ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد.

٥٠ ـ ترشيد الصحوة الإسلامية.

٥١ ـ تضحية شباب العرب قنطرة إلى سعادة البشرية .

٥٢ ـ تعالوا نحاسب نفوسنا وقادتنا .

٥٣ ـ التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي وسيد قطب .

ـ ث ـ

٥٤ ـ ثورة في التفكير .

ـ ج ـ

٥٥ ـ جوانب السيرة المضيئة في المدائح النبوية الفارسية والأردية .

ـ ح ـ

٥٦ ـ حاجة البشرية إلى معرفة صحيحة ومجتمع إسلامي .

٥٧ ـ حاجة العالم إلى الدعوة الإسلامية .

٥٨ ـ حاجة العالم إلى مجتمع إسلامي مثالي أفضل .

٥٩ ـ الحاجة إلى التركيز على جانب حاسم .

٦٠ ـ حديث مع الغرب .

٦١ ـ الحضارة الغربية الوافدة وأثرها في الجيل المثقف كما يراه شاعر الهند الكبير لسان العصر السيد أكبر حسين الإلـه آبادي .

٦٢ ـ حكمة الدعوة وصفة الدعاة .

ـ خ ـ

٦٣ ـ خليج بين الإسلام والمسلمين .

٦٤ ـ خواطر وفصول .

ـ د ـ

٦٥ ـ الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته .

٦٦ ـ دراسة للسيرة النبوية من خلال الأدعية المأثورة المروية .

٦٧ ـ درس من الحوادث .

٦٨ ـ دعوة وتاريخ .

٦٩ ـ الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر : جبهاتها الحاسمة ومجالاتها الرئيسية .

٧٠ ـ الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها .

٧١ ـ الدعوة إلى الله حماية المجتمع من الجاهلية وصيانة الدين من التحريف .

٧٢ ـ الدعوة والدعاة مسؤولية وتاريخ .

أ ـ الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر .

ب ـ كيف انتشر الإسلام في الهند .

جـ ـ دور الجامعات الإسلامية المطلوب في إعداد الدعاة .

٧٣ ـ دور الإسلام الإصلاحي في مجال العلوم الإنسانية .

٧٤ ـ دور الإسلام في تقدم البلاد التي دخلها .

٧٥ ـ دور الإسلام في نهضة الشعوب .

٧٦ ـ دور الأمة الإسلامية في إنقاذ البشرية وإسعادها .

٧٧ ـ دور الجامعات الإسلامية المطلوب في تربية العلماء وتكوين الدعاة وحماية الأقطار الإسلامية من التناقض والمجابهة .

٧٨ ـ دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته .

٧٩ ـ دور المسلمين القيادي والاجتهادي في الهند .

ـ ر ـ

٨٠ ـ ربانية لا رهبانية .

٨١ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام .

٨٢ـ رحلات العلامة أبي الحسن عليه الحسني الندوي .

٨٣ـ ردة ولا أبا بكر لها .

٨٤ـ رسائل الأعلام .

٨٥ـ رسالة التوحيد .

٨٦ـ رسالة سيرة النبي الأمين إلى إنسان القرن العشرين .

٨٧ـ روائع إقبال .

٨٨ـ روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة .

ـ س ـ

٨٩ـ سياسة التربية والتعليم السليمة .

٩٠ ـ سيرة خاتم النبيين .

٩١ ـ السيرة النبوية .

ـ ش ـ

٩٢ ـ شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال .

٩٣ ـ شخصيات وكتب .

ـ ص ـ

٩٤ ـ الصراع بين الإيمان والمادية أو (تأملات في سورة الكهف) .

٩٥ ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية .

٩٦ ـ صلاح الدين الأيوبي .

٩٧ ـ صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول ﷺ الدعوية والتربوية وسيرة الجيل المثالي الأول عند أهل السنة والشيعة الإمامية .

- ط -

- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

١١٤ ـ القادياني والقاديانية .

١١٥ ـ قارنوا بين الربح والخسارة .

١١٦ ـ القراءة الراشدة .

١١٧ ـ القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التاريخ والواقع .

١١٨ ـ قصص من التاريخ الإسلامي .

١١٩ ـ قصص النبيين .

١٢٠ ـ قصة كتب يحكيها مؤلفه .

١٢١ ـ قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم .

ـ ك ـ

١٢٢ ـ كارثة التعصب اللغوي والثقافي .

١٢٣ ـ كارثة العالم العربي الحقيقية وأسبابها .

١٢٤ ـ كلمة عن أدب التراجم والحديث عن الكتب .

١٢٥ ـ كيف توجَّه المعارف في الأقطار الإسلامية .

١٢٦ ـ كيف دخل العرب التاريخ .

١٢٧ ـ كيف يستعيد العرب مكانتهم اللائقة بهم وكيف يحافظون عليها .

١٢٨ ـ كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز والجزيرة العربية .

ـ م ـ

١٢٩ ـ المأساة الأخيرة في العالم العربي ودراستها من الناحية الدينية والخلقية والمبدئية والدعوية ، وتحليل أسبابها وانعكاساتها .

١٣٠ ـ المأساة الفلسطينية في بيروت .

١٣١ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

١٣٢ ـ المجتمع الإسلامي المعاصر فضله وقيمته، حاجته ومتطلباته، وطريق الانتفاع به.

١٣٣ ـ محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي.

١٣٤ ـ محمد رسول الله ﷺ الأعظم وصاحب المنة الكبرى على العالم، ومسؤولية العالم المتمدن الصفات الأدبية والخلقية ونحوه.

١٣٥ ـ مختارات من أدب العرب.

١٣٦ ـ المدخل إلى دراسات الحديث.

١٣٧ ـ المدخل إلى الدراسات القرآنية.

١٣٨ ـ المد والجزر في تاريخ الإسلام.

١٣٩ ـ مذكرات سائح في الشرق العربي.

١٤٠ ـ المرتضى (سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه).

١٤١ ـ مستقبل الأمة العربية الإسلامية بعد حرب الخليج.

١٤٢ ـ المسلمون تجاه الحضارة الغربية.

١٤٣ ـ المسلمون في الهند.

١٤٤ ـ المسلمون ودورهم.

١٤٥ ـ المسلمون وقضية فلسطين.

١٤٦ ـ مصادر العلوم الإسلامية.

١٤٧ ـ مطالبة القرآن الانقياد التام والاستسلام الكامل.

١٤٨ ـ مع الإسلام.

١٤٩ ـ معقل الإنسانية.

١٥٠ ـ المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي.

١٥١ ـ مقالات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي.

١٥٢ ـ ملة إبراهيم وحضارة الإسلام يجب أن ندعو إليها على بصيرة وثقة

١٥٣ ـ من الجاهلية إلى الإسلام .

١٥٤ ـ من دون أحد .

١٥٥ ـ من غار حراء .

١٥٦ ـ ممن مؤلفات الشيخ ، تتضمن :

أ ـ صلاح الدين الأيوبي .

ب ـ نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان .

جـ ـ وسائل الأعلام .

د ـ دور الإسلام الجذري في مجال العلوم الإنسانية .

١٥٧ ـ من نفحات القرن الأول .

١٥٨ ـ من نهر كابل إلى نهر اليرموك .

١٥٩ ـ منهج أفضل في الإصلاح للدعاة والعلماء .

١٦٠ ـ مواساة أم مساواة .

١٦١ ـ موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية .

١٦٢ ـ موقف المسلم إزاء أسلافه الجاهلين .

ـ ن ـ

١٦٣ ـ النبوة والأنبياء في ضوء القرآن .

١٦٤ ـ النبوة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة .

١٦٥ ـ النبي الخاتم .

١٦٦ ـ النبي الخاتم والدين الكامل ومالهما من أهمية في تاريخ الأديان والملل .

١٦٧ ـ نحن الآن في المغرب .

١٦٨ ـ نحو تكون مجتمع إسلامي جديد .

١٦٩ ـ ندوة العلماء ـ تاريخها ورسالتها .

١٧٠ ـ ندوة العلماء مدرسة فكرية شاملة .

١٧١ ـ نظامان إلـهيان للغلبة والانتصار .

١٧٢ ـ نظام التربيـة والتعليم في الأقطـار الإسـلامية وأثـره البعيـد في اتجاهاتها وقياداتها . يتضمن محاضرتين حول التربية :

أ ـ أهمية نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلامية .

ب ـ حياة الشباب المسلمين ومسؤولية نظام التعليم والتربية .

١٧٣ ـ نظرات في الأدب .

١٧٤ ـ نظـرات على الجامـع الصحيح للإمـام البخاري وميزات أبوابـه وتراجمه .

١٧٥ ـ نظرة جديدة إلى التراث الأدبي العربي .

١٧٦ ـ نظرة مؤمن واعٍ إلى المدنيات المعاصرة الزائفة .

١٧٧ ـ نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان .

ـ هـ ـ

١٧٨ ـ هلال رمضان يتكلم .

ـ و ـ

١٧٩ ـ وأذن في الناس بالحج .

١٨٠ ـ واقع العالم الإسلاميّ وما هو الطريق السديد لمواجهته وإصلاحه

١٨١ ـ وامعتصماه .

* * *

الفَهرس

الموضوع	الصفحة

الفصل الأول : لمحات من حياته

الفصل الثاني : تعريف بمؤلفاته

* * *